انطوان دى سانت اكسوبرى

أرض البشر

تعريب مصطفى كامل فوده

طبعة مزينة بالصور

دار الكاتب المصرى

فهـــرس

فهرس الصور

الصورة التى يزدان بها هذا الكتاب

مقتبسة من طبعة *LA GUILDE DU LIVRE* بلوزان

تعلمنا الأرضُ عن أنفسنا أكثر مما تعلمنا الكتبُ جميعاً ، ذلك أنها تقاومنا . ويعرف المرء نفسه عند ما يقيسها بما تصادفه من عقبات . ولكن لا بد له من آلة ليصل لها . لا بد له من محراث أو مسحاة . فعند ما يحرث الفلاح الأرضَ يقتلع بعض أسرار الطبيعة شيئاً فشيئاً ، والحقيقة التى يستخلصها ، هى حقيقة عامة . وهكذا الحال فى الطائرة ، آلة الخطوط الجوية ، إنها تضع الانسان فى صميم المشاكل القديمة كلها .

وما زالت أمام ناظرىّ ، صورةُ أول ليلة طرتُ فيها بالأرجنتين ، ليلة معتّمة ، لم تكن تلمعُ خلالها إلا أضواء قليلة منتثرة فى السهل كأنها الشهب .

وفى ذلك البحر من الظلمات ، كان كل منها يدلّ على معجزة ضمير إنسانى . ففى هذا المنزل من يقرأ ، من يفكر ، أو من يتابع مناجاته . وقد يكون فى ذلك المنزل الآخر ، من يبحث

فى سبر غور الفضاء ، من يُفنى فى حساب يتعلق بهذا الكوكب . وهناك من يُحب .

وكانت تلمع تلك النيران فى الريف ، من بعيد إلى بعيد ، باحثة عن غذائها ، وحتى أكثرها شحوباً ، نار الشاعر أو المدرس أو النجار . ولكن بين هذه الشهب الحية ، كم من نوافذ مغلقة ، كم من شهب خابية ، كم من رجال نائمين . . .

لا بد من محاولة الوصول ، لا بد من محاولة الاتصال ببعض تلك النيران التى تستعر ، فى الريف ، من بعيد إلى بعيد .

١

خط الطيران

كان ذلك فى عام ١٩٢٦ . التحقت منذ قليل كطيار حدث بشركة «لاتيوكوير» التى كانت تصل بين تولوز ودكار ، وذلك قبل أن تُسمى «أيرو پوستال» ثم «أير - فرانس» . وهناك تعلمتُ مهنتى . وكان علىّ أنا أيضاً ، ككل الرفاق ، أن أمر بدور التلمذة الذى مرّوا به جميعاً ، قبل أن يكون لنا شرف قيادة طائرة البريد . فمن تجارب الطائرات ، إلى التنقل بين تولوز وپرپنيان ، الى دروس حزينة فى الظواهر الجوية نتلقاها تحت مظلة شديدة البرودة . وكنا نعيش فى جو من الخوف من جبال أسبانيا ، ولم نكن نعرفها بعد ، وفى جو من الاحترام للقُدامى من الزملاء .

وهؤلاء القدامى ، وكنا نلقاهم بالمطعم ، قوم جفاة متباعدون ، يلقون إلينا بنصائحهم من حالق . وعند ما يعود أحدهم من أليكانت أو الدار البيضاء متأخراً وقد بلله ماء المطر ، فيسأله أحدنا بوجل عن رحلته ، كانت إجاباته المختصرة وأيامه العاصفة تخلق لنا عالماً خرافياً مليئاً بالفخاخ والأشراك ، والتلال التى تظهر فجأة ، والعواصف القادرة على اقتلاع أضخم الأشجار . والشياطين السود التى تحرس مداخل الوديان والبروق التى تتوج هامات الجبال . هؤلاء القدامى كانوا يغذون — عن خبرة — احترامنا لهم . ولكن ، من وقت لآخر ، كان يغيب أحدهم وهو متمتع باحترامنا الى الأبد .

وإنى لأذكر إحدى المرات التى عاد فيها برى — وقد قُتل فيما بعد فى جبال الكوربيير — فهاهو ذا الطيار القديم يجلس بيننا ، ويأكل ببطء دون أن ينبس بكلمة ، وقد ناء كتفاه تحت عبء المجهود . كان ذلك فى مساء يوم ساء جوه ، وعصفت سماؤه على طول خط الطيران ، وبدت الجبال كأنها تتمرغ فى حمأة ، كتلك المدافع التى تقطعت حبالها المُثبِّتة فصارت تمرح على ظهور المراكب الشراعية فى سالف الأيام . نظرت إلى برى

وابتلعت ريقى ثم خاطرت أخيراً بسؤاله عن رحلته أكانت شاقة . لم يسمعنى برى فقد كان مقطب الجبين ، منحنياً على طبق أمامه . كان يحدث أحياناً على ظهر الطائرات المكشوفة وفى الجو السيء ، أن ينحنى الطيّار فوق حاجز الهواء ليستطيع تمييز الأشياء ، وحينئذ تصيبه صفعات الرياح وتبقى صفيّرة فى أذنيه مدة طويلة . وأخيراً رفع برى رأسه وخيل إلىّ أنه سمعنى وأنه تذكّر ، وأخذ يضحك ضحكة رائقة مما أثار سرورى وعجبى لأن برى كان نادراً ما يضحك ، وقد ألقت تلك الضحكة القصيرة الضوء على تعبه . ولم يعط أى تفسير آخر لنجاحه ، بل أحنى رأسه وعاود الأكل . وفى عتمة ذلك المطعم ، وبين هؤلاء الموظفين الصغار الذين يأتون هنا ليريحوا أنفسهم من عناء متاعبهم التافهة ، بدا لى هذا الزميل ذو الكتفين الضخمتين نبيلا نبلا رائعاً ، فمن وراء حجابه الكثيف ، طلع الملاك الذى يستقر بين جنبيه ، هذا الملاك الذى هزم الشيطان .

وأخيراً أتى المساء الذى دُعيت فيه بدورى إلى مكتب المدير وقال لى ببساطة :

— سترحل غداً .

وبقيت واقفاً ، منتظراً أن يسمح لى بالخروج ، ولكنه عاود الكلام بعد سكون قائلا :

— أتعرف التعليمات جيداً ؟

لم يكن لمحركات ذلك الوقت من الأمان ، ما لمحركات اليوم . وكثيراً ما كانت تُلقى بنا فجأة ودون سابق إنذار فى ضجة عظيمة كأنها ضجة الأوانى المحطمة . وحينئذ كنا نستسلم لقمم أسبانيا الصخرية التى لا يكاد يوجد بها ملجأ أمين ، وكنا نقول « هنا عند ما ينكسر المحرك ، فان الطائرة غالباً ما تتبعه » ولكن الطائرة يمكن تعويضها . والمهم هو ألا يقترب الانسان من الصخرة كالأعمى ، ولهذا كانوا يحرمون علينا ، وإلا تعرضنا لأشد العقوبات ، الطيران فوق بحار السحب التى تعلو المناطق الجبلية ، إذ لو أصاب الطيار عطل ، وغاص فى ذلك النديف الأبيض ، فقد يصطدم بالقمم دون أن يراها .

ولهذا أصر صوت بطىء فى تلك الليلة وللمرة الأخيرة على التذكير بالتعليمات قائلا :

— إنه لجميل أن تطير بمعونة البوصلة فى أسبانيا فوق بحار السحب ، إن ذلك لشيق ولكن ...

ثم قال ببطء أكثر :

— ... ولكن تذكر : تحت بحار السحب ... تجد الخلود .

وهكذا أصبح ذلك العالم الهادىء المنبسط السهل ، الذى يكتشفه الانسان عند طيرانه فوق السحب ، عالماً مجهولا . وأضحى ذلك النعيم فخاً . وأخذت أتخيل ذلك الشرك الأبيض العظيم المنبسط هناك تحت قدمى حيث لا يسود أسفله — كما قد يُظن — لا حركة الناس ، ولا ضجتهم ، ولا ركب المدائن ، ولكن سكون أكثر أطباقا وسلام أشد عمقاً ، وبدا لى هذا الشرك الأبيض حداً فاصلا بين الواقع وغير الواقع ، بين المعلوم وما لا يمكن معرفته . وفهمت عندئذ أن أى منظر لا يكون ذا معنى إلا فى ضوء ثقافة أو حضارة أو مهنة . فالجبليون يعرفون أيضاً بحار السحب ولكنهم لايكتشفون فيها هذا الستار الخرافى .

وعند ما خرجت من ذلك المكتب شعرت بزهو كأنه زهو الأطفال ، فعما قليل ، عند الفجر ، سأصبح أنا الآخر مسؤولا عن المسافرين ، مسؤولا عن بريد أفريقيا . ولكنى أحسست أيضاً بخشوع عظيم . شعرت أنى سيء العُدة . لقد كانت أسبانيا

قليلة الملاجيء الأمينة ، وخشيت إن تعطلت الطائرة ألا أجد مَهبطاً يستقبلنى . وانحنيت على صحراء خريطتى دون أن أجد ما أنا فى حاجة إليه . ولهذا ذهبت ، والقلب مفعم بخليط من الخوف والزهو ، لقضاء تلك السهرة عند زميلى جيوميه . كان جيوميه قد سبقنى فى ارتياد هذه الطرق . وهو يعرف الحيل التى تفتح أبواب أسبانيا ، وكان علىّ أن أتلقى العلم على يدى جيوميه .

عند ما دخلت عليه ابتسم وقال :

— لقد بلغنى النبأ . فهل أنت مغتبط ؟

ثم ذهب إلى القمطر ليأتى بنبيذ البورتو والأكواب وعاد باسماً يقول :

— فلنشرب نخب هذا . وسترى أن كل شيء سيجرى على ما يرام .

كان يفيض بالثقة كما يفيض المصباح بالضياء ، ذلك الزميل الذى ضرب فيما بعد الرقم القياسى فى عبور جبال الأنديز والأطلسى الجنوبى . وكان يلبس فى ذلك المساء قميصاً طوى كميه ووضع ذراعا فوق الأخرى ، وعلى شفتيه بسمة مستبشرة وقال لى ببساطة : « الزوابع ، والضباب ، والثلج ، سيضايقك كل هذا

أحيانا ، فاذكر عندئذ من عرفوا ذلك قبلك ، وقل لنفسك : «ما نجح فيه الآخرون ، أستطيع أن أنجح فيه أنا أيضاً .» ولكنى بسطت خرائطى وسألته أن يراجع سير الرحلة معى ، ولقد عاودنى هدوء المدرسة وسلامها وأنا منحن تحت المصباح ومستند إلى كتف الزميل القديم .

ولكن ياله من درس عجيب فى الجغرافيا ذلك الذى تلقيته ! لم يكن جيوميه يلقى علىّ درساً عن أسبانيا . أنه كان يجعل منها صديقة لى . لم يحدثنى عن توزيع المياه بها ولا عن سكانها أو حيواناتها . لم يحدثنى عن چواديكس ، ولكنه حدثنى عن ثلاث أشجار من البرتقال تحفّ حقلا قرب چواديكس وقال لى : « احترس منها ، بيّنها على خريطتك . » ومنذ ذلك الوقت شغلت هذه الأشجار الثلاث ، على خريطتى ، مكاناً أكبر مما تشغله جبال سييرا نفادا . لم يحدثنى عن لوركا ، ولكن عن مزرعة بسيطة قرب لوركا ، وعن صاحبها وصاحبتها . واحتل هذان الشخصان ، التائهان فى الفضاء على بعد ١٥٠٠ كيلو متراً ، مكانة عظيمة . ففى موضعهما الأمين على سفح الجبل ، كأنهما حارسا منار ، كانا على استعداد لتقديم العون إلى بنى الإنسان .

وهكذا بعثنا من عالم النسيان والبعـد ، تفاصيل يجهلها الجغرافيون جميعاً . فإن نهر الأيبر الذى يروى مدناً عظيمة هو ما يهم الجغرافيين ، أما ذلك الجدول المختبىء تحت الحشائش غرب موتريل والذى يسقى بضع أشجار زهور فلا يهمهم إطلاقا . « احترس من الجدول فإنه يفسد الحقـل الذى يجاوره . بيّنه على خريطتك » . إنى سأذكر ثعبـان موتريل . لم يكن فى مظهره ما يدل على شىء ذى قيمة . ولا كان خريره الخافت إلا ليؤنس بضع ضفادع ولـكنه لا ينام إلا بإحدى مقلتيه . ويرقد متمدداً تحت الحشائش فى فردوس ذلك الحقل ، يرتقبنى على بعـد ألفين من الـكيلومترات ، وعند أول فرصة سيحيلنى جذوة من الضِـرام . . .

وهذه الشاء المقاتلة ، واقفـة على جنب التل ، مستعدة للنزال : « ستظن ذلك الحقل خالياً ثم إذا بتلك الشاء تمرح تحت عجلات طائرتك » . وكنت أجيب ببسـمة باهرة على ذلك الخطر الخائن .

واستحالت خريطة أسبانيا فى ضوء مصباحى ، بلداً من بلاد العجائب وأخذت أبين الأماكن الأمينة والأماكن الخطرة . ووضعت تلك الراعية التى أهملها الجغرافيون فى مكانها المضبوط .

وعند ما استأذنت جيومبه فى الخروج أحسست حاجة إلى السير فى تلك الأمسية الشتوية المثلجة . فرفعت ياقة معطفى وسرت وسط المارة الجهلاء ، وبين جنبىّ حماس وليد . كنت فخوراً أن أسير إلى جوار قوم لا أعرفهم ، وفى قلبى سر مكنون . لقد كانوا يجهلوننى ، أولئك الغرباء ، ولكنهم سيعهدون إلىّ فى يقظة الفجر بهمومهم ورغباتهم ، أحملها فى حقائب البريد ، إنهم سيلقون بآمالهم بين يدىّ ، وهكذا سرت بينهم ، متدثراً بمعطفى ، وكأنى حاميهم ، وما دروا شيئاً من مطلبى .

لا ، بل لم يصلهم من الليل ما كان يصلنى من رسالات . إنها تهم لحمى ودمى تلك العاصفة الثلجية التى كانت وشيكة الحدوث وربما عقدت رحلتى الأولى . كانت النجوم تخبو واحدة إثر أخرى فكيف يدرى ذلك أولئك المتنزهون ؟ لقد كنت وحيداً فى تلك النجوى . كانت مواقع العدو تُرسل إلىّ قبل المعركة ...

ولكنّ كلمات السر هذه التى كانت تدفعنى تلقيتها واقفاً أمام واجهات الحوانيت المنيرة حيث تلمع هدايا عيد الميلاد . وكان يُخيل للناظر إليها أن كل ثمرات الأرض قد عُرضت فيها ، وعندئذ تذوقت خمراً يبعث الفخر ، خمر التضحية . كنتُ مقاتلا

مُهدداً فما كانت تهمنى تلك البلورات المتلألئة المُعدة لحفلات المساء، ولا أغطية المصابيح هذه، ولا تلك الكتب. كنت غارقا فى رذاذ المطر، وكنت وأنا قائد الطائرة، أقضم فعلا لُبّ ليالى الطيران المر.

كانت الساعة الثالثة صباحا حينما أيقظونى ففتحت بدفعة واحدة خشب النوافذ ولاحظت أن الدنيا تمطر ولبست ملابسى.

بعد ذلك بنصف ساعة كنت جالساً على حقيبتى الصغيرة فوق الافريز اللامع من ماء المطر، أنتظر المركبة بدورى. وكم من زميل قبلى، فى أول رحلة له، تحمل عبء هذا الانتظار وقلبه منقبض قليلا. وأخيراً بدت، فى زاوية الشارع، مركبة الأيام الخالية تحدث ضجيجاً كأنها حديد عتيق. وكان لى الحق بدورى ككل الزملاء، أن أحشر نفسى على المقعد بين رجل الجمرك الذى لم يستيقظ تماماً وبين بعض الموظفين. كانت تفوح من هذه المركبة رائحة الأشياء المخزونة، الادارة المتربة والمكتب العتيق حيث تهوى حياة الرجال وكأنها تغوص فى الرمال. وكانت تقف كل خمس دقائق ليركب كاتب أو موظف جمرك أو مفتش. وكان الركاب وقد غفوا، يجيبون بهمهمة غامضة على تحية الراكب

الجديد الذى لا يلبث أن يتكوم بطريقة ما ، ثم ينام هو الآخر . كان ركباً حزيناً يسير على بلاط غير منتظم بأحد شوارع تولوز . ولم يكن المرء بقادر لأول وهلة أن يتبين الطيار بين هذا الخليط من الموظفين . . . ولكن المصابيح تجرى ، ولكن الأرض تقترب ، وهذه المركبة العتيقة لم تكن إلا شرنقة يخرج منها الطيار خلقاً آخر .

وهكذا سبق لكل زميل أن أحس ذات صباح مماثل ، وما زال مرءوسا خاضعا لهذا المفتش العابس ، بمخلوق جديد يولد بين جنبيه ، ذلك هو المسئول عن بريد أسبانيا ، الذى سيواجه بعد ثلاث ساعات وسط البروق ، شيطان هو سبيتاليه ... حتى إذا هزمه بعد أربع ساعات ، قرر بمحض مشيئته ، وهو مطلق السلطة ، أن يتخذ طريق البحر أو أن يقصد مباشرة سلسلة جبال ألكوى ، والذى سينازل العواصف والجبال والبحار .

وهكذا سبق لكل زميل ، وهو مختلط بذلك الفريق المجهول ، تحت سماء تولوز المعتمة شتاء ، أن أحس ذات صباح مماثل ، نمو ذلك السلطان المستقر فيه ، الذى سيخلف وراءه بعد خمس ساعات أمطار الشمال وثلوجه ، ويطلق الشتاء ثم يترل

فى صميم الصيف ، بعد أن يخفف من قيود المحرك ، تحت شمس أليكانت المشرقة .

اختفت تلك المركبة القديمة ولكن جفوتها وخشونتها ما برحتا حيتين فى ذاكرتى . إنها رمز الإعداد الذى لا بد منه كى نتمتع بالمباهج القاسية لمهنتنا . لقد كان كل حدث فيها يتخذ مظهر الزهد والبساطة . وإنى لأذكر كيف تلقيت فيها بعد ثلاث سنوات من تلك الليلة ، ودون أن يتم تبادل عشر كلمات ، خبر موت الطيار لكريقان ، أحد مئة من طيارى ذلك الخط ، الذين نالوا راحتهم الأبدية فى يوم أو ليلة كثيرة الضباب .
وهكذا كانت الساعة الثالثة صباحا حين سمعنا ، فى سكون مماثل ، المدير المختفى فى الظلام ، يرفع صوته ويوجه الكلام للمفتش :

— لم يهبط لكريقان هذه الليلة فى كازابلانكا .

فأجاب المفتش :

— آه !

وبذل مجهوداً ليستيقظ ، وقد انتُزع من حلمه انتزاعاً ، حتى يظهر اهتمامه ، ثم أضاف قائلا :

— آه ، نعم ، ألم ينجح ؟ هل عاد ؟

ورد المدير على ذلك ببساطة قائلا : « كلا » . وانتظرنا التكملة ولكن لم ينبس أحد بكلمة . وكلما مرّت الثوانى ، وضح أن كلمة « كلا » هذه لن تعقبها كلمة أخرى ، وأنها لا تُنقض وأن لكريفان لم يكن قد هبط فى الدار البيضاء فحسب ، ولكنه لن يهبط أبداً فى أى مكان آخر .

وهكذا كان علىّ فى ذلك الصباح ، وفى فجر رحلتى الأولى ، أن أخضع لمراسم المهنة المقدسة ، وأحسست بثقتى تتناقص كلما رنوت ببصرى من خلال نوافذ المركبة الزجاجية إلى أرض الشارع اللامعة حيث انعكست صور المصابيح ، وحيث رسمت الرياح فروع شجر تجرى على صفحة الماء الراكد . وفكرت : « حقا إنى لقليل الحظ ... فى رحلتى الأولى . » ثم صعّدت نظرى إلى المفتش وقلت : « أهذا جو سيء ؟ » فألقى على النافذة نظرة عادية وتمتم قائلا : « هذا لا يعنى شيئاً . » وتساءلت بأية علامة إذن يمكن معرفة الجو السيء . كان جيوميه فى مساء الليلة السابقة قد محا ببسمة واحدة كل أثر للتشاؤم الذى صبته علينا القدامى من الرفاق . ولكنهم عادوا إلى ذاكرتى حينذاك

وتذكرت هذه الكلمات : « من لا يعرف الطريق حجراً حجراً ، فإنى أرثى له إذا قابلته عاصفة ثلجية ، نعم أرثى له ... ! » كان لا بد لهم من أن ينقذوا سمعتهم ولهذا يهزون رؤوسهم ويحدقون فينا بشفقة تربكنا كما لو كانوا يرثون لسذاجتنا البريئة .

وحقاً ، لكم منا كانت هذه المركبة الملجأ الأخير ؟ ستون ، ثمانون ؟ قادهم نفس هذا السائق الصامت ، ذات صباح مطير . كنت أنظر حوالىّ فأرى نقطاً منيرة تلمع فى الظلام ، إنها لفائف يدل لمعانها على تأملات مدخنيها . تأملات تافهة ، تأملات موظفين شاخوا . ولكم منا كان هؤلاء الرفاق آخر المشيعين ؟

وسمعتهم أيضاً يتناجون بصوت خفيض . فكانوا يتكلمون عن الأمراض والنقود والهموم المنزلية المحزنة مما يبيّن جدران ذلك السجن المظلم الذى احتبس فيه أولئك الرجال أنفسهم وعلى حين فجأة طلع وجه القدر علىّ .

أيها الموظف القديم ، يازميلى هنا ، لم يستطع أحد قط أن يحررك من هذا السجن ، ولستَ مسئولا عن ذلك إطلاقا . لقد أقمت سعادتك بأن سددت ، كالنمل الأبيض ، كل مخرج

يوصلك للنور . والتففت — كالكرة — فى اطمئنانك البورچوازى وفى عوائدك الثابتة وفى المراسم الخانقة للحياة الإقليمية ، وأعليت هذا السور الوضيع ضد الرياح والأنواء والنجوم . إنك لا تريد أبداً أن تقلق نفسك بكبرى المسائل ، فكفاك ما لاقيت لتنسى حالك كإنسان . لست من سكان كوكب سيار ، إنك لا تسأل نفسك سؤالا بلا جواب ، فأنت بورچوازى من تولوز . لم يأخذ أحد بيدك قط عند ما كان ذلك ممكناً . والآن ، جفت طينتك ويبست ، ولن يستطيع أحد أن يوقظ الموسيقىَّ النائم أو الشاعر أو الفلكى الذين ربما كانوا أول الأمر فى حنايا نفسك .

لم أعد أشكو وابل المطر ، إن سحر مهنتى يفتح لى عالماً سأواجه فيه قبل ساعتين الشياطين السود ، وهامات الجبال تتوجها البروق الزرق ، وسأقرأ طريقى بين النجوم ، عند ما يجن الليل .

وهكذا سار تعميدنا المهنى وابتدأنا رحلاتنا . وكانت تلك الرحلات تمر فى الغالب بلا حوادث فكنا نغوص بسلام كغطاسين محترفين فى أعماق مملكتنا . والآن وقد عرفنا تماماً

هذه المملكة ، لم يعد الطيار والميكانيكى وعامل اللاسلكى يقومون بمغامرة ، إنهم يحبسون أنفسهم فى معمل ، ويخضعون لمؤثرات لا بما يمر بهم من مناظر طبيعية . ففى خارج الطائرة تبرز الجبال من الظلمات ، ولكنها ليست جبالا ، إنها قوى خفية يجب أن يُحسب حساب الاقتراب منها ، وعامل اللاسلكى يدون أرقاماً على ضوء مصباحه ، والميكانيكى يبين الخريطة ، والطيار يصحح طريقه إن ابتعدت الجبال أو ظهرت أمامه القمم ، وكان يريدها على يساره ، وكل ذلك فى صمت الاستعدادات العسكرية وسرها .

أما عمال اللاسلكى الساهرون على الأرض ، فإنهم يدونون بهدوء فى كراساتهم نفس الإملاء التى يدونها زميلهم : « الساعة الثانية عشرة وأربعون دقيقة بعد منتصف الليل . الطريق على ٢٣٠ . كل شيء فى الطائرة على ما يرام . »

وهكذا يسير الركب ، لا يحس أنه فى حركة ، أنه بعيد عن كل دليل كأنه يسير فى البحر ليلا . ولكن المحركات تملأ هذه الغرفة المضاءة بهزة تغير معدنها . ولكن الساعة تدور ، ولكن كيميا خفية تحدث فى هذه الميناءات ، فى هذه المصابيح الكهربائية وفى هذه الابر . وتهيء شيئاً فشيئاً هذه الإيماءات

الخفية ، وهذه الكلمات الخافتة ، المعجزة التى ستحدث . وعند ما تحين الساعة ، يستطيع الطيار واثقاً أن ينظر خلال زجاج النافذة ، فيرى الذهب وقد خُلق من العدم ، يراه يشع من نيران الميناء الجوى .

وعلى الرغم من ذلك فقد عرفنا جميعاً رحلات شعرنا فيها فجأة ، على ضوء وجهة نظر خاصة ، ونحن على مدى ساعتين من الميناء الجوى ، ببعد لم نكن نشعر بمثله ولو ذهبنا إلى الهند ، ولم نكن نأمل العودة .

وهكذا لما عبر مرموز لأول مرة الأطلسى الجنوبى فى طائرة مائية ، اقترب آخر النهار من منطقة الحجر الأسود ، فرأى أمامه أذناب عاصفة مائية ترتفع وتتضام شيئاً فشيئاً كما يرى الانسان جداراً يُبنى ، ثم جن الليل فغطاها وخبأها . ولما مرق بعد ذلك بساعة خلال السحب ، وقع فى عالم مسحور .

رأى عمدا من الماء منتصبة متجمعة ، وخيل إليه أنها واقفة لا تتحرك كأنها عمد سود فى أحد الهياكل ، تحمل فوق رؤسها القبة المعتمة المنخفضة للإعصار ، وكانت أشعة الضوء تسرى من فتحات فيها ، والقمر فى ليلة التمام يرسل ضياءه بين

العمد فيقع على البلاط البارد للبحر . وواصل مرموز طريقه بين هذه الأطلال المقفرة ، ينثنى من مسرى ضوء لآخر ويتفادى تلك العمد الضخمة حيث كان يُسمع فيها زئير البحر الصاعد ، وظل سائراً أربع ساعات سوياً على ضوء القمر نحو مخرج ذلك الهيكل . كان المشهد رائعاً حتى أن مرموز أدرك ، بعد أن تخطى منطقة الحجر الأسود ، أنه لم يشعر بالخوف .

وإنى لأذكر أنا الآخر ، إحدى تلك الساعات التى يتخطى فيها الإنسان تخوم العالم الحقيق . كانت التنبؤات الجوية التى ترسلها محطات الطيران الصحراوية خاطئة كل تلك الليلة تخدعتنا أنا واللاسلكى نرى . ولما رأيت الماء يلمع خلال شق فى الضباب توجهت رأساً إلى الشاطئ ؛ إذ لم أكن أعرف منذ كم من الزمن كنا نغوص هكذا ناحية البحر .

ولم نكن واثقين من مقدرتنا على اللحاق بالشاطئ لأن الوقود قد ينفد . وحتى إذا وصلنا الشاطئ فلا بد من البحث عن المحطة الجوية . كانت ساعة مغيب القمر ونحن بلا معلومات عن مكاننا ، وقد أصمت آذاننا ، وأخذنا نفقد البصر شيئاً فشيئاً . وخبا القمر كما تخبو شعلة شاحبة ، وسط ضباب يحاكى أريكة من الثلج . وبدأت السماء فوقنا تلتحف بالسحب ، ثم

صرنا نطير بين السحب والضباب ، فى عالم خلا من الضياء ومن كل محسوس .

وتوقفت محطات الطيران التى كانت ترد علينا عن إخبارنا بموقعنا : « لامعلومات عن مكاننا . لامعلومات » . كان صوتنا يصلهم من كل مكان وليس من مكان .

وفجأة وقد بدأنا نيأس ، لمعت فى الأفق نقطة منيرة عن يسارنا ، وشعرت بمرح لجب ، ومال نرى نحوى وسمعته يغنى ! لا بد أنها محطة الطيران ، ولا بد أن هذا فنارها ، لأن الصحراء تخبو فى الليل وتمسى أرضا مواتا . ولكن الضوء تلألأ قليلا وما لبث أن انطفأ . كنا قد وجهنا مقدم الطائرة نحو نجم لمع ساعة غروبه دقائق ، بين طبقة الضباب والسحاب .

ثم رأينا أنواراً أخرى تشرق ، فوجهنا مقدّم الطائرة نحو كل واحد منها ، يحدونا أمل صامت . ولما استمر الضياء ، حاولنا المحاولة العظمى ، فأصدر نرى الأمر لمحطة سيزنروس : «أطفئوا فناركم ثم أضيئوه ثلاث مرات» ، فأطفأت سيزنروس فنارها ثم أضاءته ، ولكن الضوء الجامد الذى كنا نرقبه لم ينطفىء ، إنه نجم لا يخبو .

وعلى الرغم من أن الوقود كان وشيك النفاد ، فقد كنا فى

كل مرة نخدع أنفسنا بذلك الضياء ، كان يبدو لنا أنه المحطة الجوية وأنه الحياة ، ثم كان علينا أن نغير ذلك النجم .

وعندئذ شعرنا أننا تهنا فى الفضاء ، بين مئات من الكواكب المُحرّمة علينا ، باحثين عن الكوكب الحقيقى الوحيد ، عن كوكبنا الفريد فى احتوائه على مناظرنا الأليفة وبيوتنا العزيزة وأحبائنا .

الفريد فى احتوائه . . . سأقول لكم الصورة التى بدت لى عند ذاك ، وقد يخيل إليكم أنها من نسج خيال طفل . ولكنا فى قلب الخطر نحتفظ بهمومنا كأفراد من البشر ، وكنت عطشانَ وكنت جوعانَ . فاذا هبطنا سيزنروس فسنواصل الرحلة بعد ملء خزاناتنا بالوقود ، ثم ننزل الدار البيضاء فى نسم الفجر . عندئذ يكون العمل قد انتهى . وندلف أنا ونرى إلى المدينة حيث تفتح بعض المقاهى الصغيرة أبوابها فى الفجر . ونجلس أنا ونرى إلى المائدة ، فى أمان شامل ، ونضحك من الليلة السالفة وأمامنا أهلّة الخبز الساخنة وقهوة اللبن ، ونتسلم ، أنا ونرى ، هدية الصباح من الحياة . وهكذا لا تتصل الفلاحة العجوز بإلهها إلا عن طريق صورة مرسومة ، صورة ساذجة ، أو عن طريق مسبحة . يجب أن توجه لنا لغة بسيطة لنستطيع فهمها . وهكذا تجمعت

أمامى بهجة الحياة فى هذه الرشفة الأولى المعطرة المُحرقة ، فى هذا المزيج من اللبن والبن والقمح ، الذى يصل المرء بالمراعى الهادئة والمزروعات الغريبة والمحصولات ، الذى يصل المرء بالأرض كلها . وبين كل تلك الكواكب لم يكن هناك إلا كوكب أحد ، يستطيع أن يُعد لنا هذا الإفطار الشهى ، ليكون فى متناولنا .

ولكن أبعاداً شاسعة لا نستطيع تخطيها ، كانت تتجمع بين مركبنا وبين تلك الأرض المسكونة . كل نعم الكون استقرت فى هباءة من الثرى تائهة بين الأجرام السماوية . وكان الفلكى نرى يبحث عنها وهو دائم التضرع للنجوم .

وفجأة هزت يده كتفى وقرأت فى ورقة قدمها لى : « كل شىء على ما يرام ، إن رسالة طيبة تصلنى » . وترقبت والقلب راجف ، أن يتم نقل الخمس أو الست كلمات التى ستنقذنا ، وأخيراً تسلمتها ، تلك الهبة من السماء .

كانت مُرسلة من الدار البيضاء التى غادرناها مساء اليوم السابق وتأخرت فى النقل فوصلتنا فجأة على بعد ألفين من الكيلومترات ونحن بين السحب والضباب تائهين فى البحر .

وهى صادرة من ممثل الحكومة بميناء الدار البيضاء الجوى وقرأت فيها : « ياسيد سانت اكسوپرى ، إنى مضطر أن أطلب إلى باريس مجازاتك . حلقتَ بالقرب من المظلات عند مغادرتك الدار البيضاء . » كان صحيحاً أنى طرت قرب المظلات ، وكان صحيحاً أيضاً أن ذلك الرجل يؤدى واجبه عند ما يغضب منا . ولو قد تلقيت ذلك التأنيب فى مكتب ميناء جوى لتقبلته بخشوع . ولكن الرسالة وصلتنا حيث كان يجب ألا تصل . وكانت نشازاً بين هذه النجوم النادرة وهذا الفراش من الضباب وهذا الطعم المُهدد للبحر . كان مصيرنا ومصير البريد والطائرة بين أيدينا ، وكنا نشق فى الكفاح من أجل الحياة ، وذلك الرجل يبعث بغضبه التافه إلينا . ولكن بدلا من أن نثور ، شعرتُ ونرى بفرح مفاجىء عظيم . فهنا كنا نحن السادة ، وقد أتاح لنا هذا الرجل أن نحس ذلك . ألم ير ذلك الجاويش على أذرعتنا أننا ترقينا إلى رتبة اليوزباشى ؟ لقد أقض مضجعنا وسط ذلك الحلم ، عند ما كنا نشق أعماق الفضاء ، عند ما كانت خيانة القمر همّنا الوحيد ولا شاغل لنا سواه . . .

كان الواجب المباشر ، الواجب الوحيد على الكوكب الذى ظهر فيه ذلك الرجل أن يعطينا أرقاماً مضبوطة تعيننا فى حسابنا

ونحن بين الشهب ، وكانت تلك الأرقام خاطئة. أما عن بقية الأمور فكان واجباً على الكوكب أن يصمت . وكتب لى نرى : « خير لهم أن يعيدونا إلى أى مكان آخر ، بدلا من أن يتسلوا بمثل هذا الهراء » . وكان يعنى بكلمة « هم » هذه كل شعوب الكرة ، ببرلماناتهم ، ومجالس شيوخهم ، وبحرياتهم ، وجيوشهم ، وأباطرتهم . وبعد أن أعدنا قراءة رسالة ذلك المجنون الذى كان يظن أن له شأناً معنا ، غيرنا طريقنا نحو عطارد .

وأنقذتنا أعجب الصدف : فما حانت الساعة التى ودّعنا فيها كل أمل بالوصول إلى سيزنروس ، حتى قررنا أن نتجه رأساً إلى الشاطىء وأن نتبع ذلك الطريق حتى ينفد الوقود ، وهكذا كان لدينا بعض الأمل ألا نسقط فى البحر . ولكن لسوء الحظ كانت فناراتى قد خدعتنى فجذبتنى ، يعلم الله ، إلى أى مكان . ولسوء الحظ أيضاً ، كان الضباب كثيفاً ، فإذا وصلنا الشاطىء — على أحسن الفروض — فلا بد من اختراق ذلك الضباب فى الليل البهيم ، مما يقلل أملنا فى الوصول إلى الأرض دون كارثة . ولكن لم يكن لى الخيار .

كان الموقف بيّناً ، حتى أنى رفعت كتفىّ بحزن عند ما قدم

لى نرى رسالة ، لو وصلتنا قبل ساعة ، لكان فيها نجاتنا : « سيزنروس تقرر تعيين موقعنا. سيزنروس تقول : طريق ٢١٦ غريب . . . » وهكذا لم تعد سيزنروس مدفونة فى الظلمات . لقد طَلَعت هناك ملموسة عن يسارنا . نعم ، ولكن على أى بُعد ؟ وتحدثت أنا ونرى حديثاً قصيراً . سبق السيف العذل . واتفقنا. لو حاولنا الوصول إلى سيزنروس فربما لا نستطيع الوصول إلى الشاطىء . وأجابهم نرى : « سنواصل السير فى اتجاه ٩٣ إذ ليس لدينا من الوقود إلا ما يكفينا ساعة . »

ولكن المحاطّ الجوية كانت تستيقظ واحدة إثر أخرى ، واختلطت بحديثنا أصوات أجادير والدار البيضاء ودكار . كانت محطات الراديو فى كل مدينة قد أخطرت الموانىء الجوية . وقام رؤساء الموانىء الجوية بإخطار الزملاء ، وتجمعوا حوالينا شيئاً فشيئاً ، كما يتجمعون حول سرير مريض . عطف حار لا جدوى منه ، ولكنه رغم ذلك عطف يُحس ، نصائح عقيمة ، ولكن كم هى رفيقة !

وفجأة برزت تولوز ، رأس الخط ، التائهة هناك على بعد أربعة آلاف من الكيلومترات . واستقرت بيننا مباشرة وقالت تو"ا : « أليست الطائرة التى تقودها ف . . . (لقد نسيت الرمز)

فأجبنا : « نعم » فردّوا : « إذن لديكم وقود يكفيكم ساعتين ، فخزان طائرتكم ليس من نوع ستاندارد . اتجهوا إلى سيزنروس . »

*

وهكذا تصبح الضرورات التى تتطلبها مهنة ما ، أداة لتغيير العالم وجعله أكثر ثراء . وما من حاجة إلى ليلة مماثلة ليكتشف الطيار معنى جديداً للمشاهد القديمة : فالمنظر الثابت الذى يضايق المسافر ، هو شيء آخر للطيار . وهذه الكتلة من السحب التى تسد مسالك الأفق ، ليست حلية بالنسبة له . إنها تهم عضلاته وتأتيه بمشاكل . فهو يحسب حسابها ، ويقيسها ، وتربطه بها لغة حقيقية . وهناك قمة مازالت بعيدة ، فبأى صورة ستظهر له ؟ إنها ستكون هاديا هيناً فى ضوء القمر ، أما إذا سار كالأعمى ، ولم يجد طريقه إلا بصعوبة ، وتردد فى معرفة موقعه ، عندئذ تستحيل تلك القمة مادة مفرقعة ، وتملأ الليل كله بخطرها ، كلغم واحد ، تائه فى البحر ، تسيّره التيارات كما تشاء ، فيفسد البحر كله .

وهكذا تختلف أيضا البحار . فلا يرى العاصفةَ المسافرون

العاديون ، لأن الأمواج إذا لوحظت من ذلك الارتفاع الشاهق لم يبد منها شيء بارز ، ويُرى الزبد ثابتاً لا يتحرك . ولا تظهر إلا أشجار من الماء المتجمد ذات فروع وأغصان . ولكن الطيار يعلم أن الهبوط هنا مستحيل ، وتبدو له هذه الأشجار كأنها زهور سامة كبيرة .

وحتى إذا كانت الرحلة سعيدة ، فإن الطيار الذى يحلق فى مكان ما من خط الطيران ، لا يرى مشهداً عادياً بسيطاً . إنه لا يعجب بألوان الأرض والسماء ، ولا بآثار الرياح على صفحة الماء ، ولا بسحب الشفق المذهبة ، إنه يتأملها جميعاً ، كالزارع يجوس خلال ضيعته ، فيعرف بآلاف العلامات مسير الربيع وخطر الثلج والمطر . والطيار المحترف يحلّ — هو أيضاً — رموز الثلج والضباب والليل السعيد . والطائرة التى قد يخيل إلينا فى أول الأمر أنها تفصل بينه وبين كبرى المسائل الطبيعية ، تُخضعه لها بشدة أعظم . فيبقى الطيار وحيداً وسط محكمة شاسعة تُعدها له سماء عاصفة ، وينازع بريده ضد آلهة ثلاثة : الجبل والبحر والعاصفة .

٢

الزمـلاء

١

أسس خط الطيران الفرنسى من الدار البيضاء إلى داكار — فوق الصحراء الثائرة — ، بضعة زملاء ومن بينهم مرموز. وكانت المحركات كثيرة العطب فى تلك الأيام، وذات مرة تعطلت طائرة مرموز فوقع فى أيدى رجال القبـائل وترددوا فى ذبحه فاحتفظوا به خمسة عشر يوماً ثم باعوه. وعاود مرموز الطيران فوق نفس هذه الأماكن.

ولما أنشىء خط أمريكا، عُهد إلى مرموز — وهو دائماً فى الطليعة — بدراسة الجزء من الخط ما بين بونس إيرس وسانتياجو، فبعد أن بنى معبراً فوق الصحراء كُلِّف إقامـة آخر فوق

جبال الأنديز . وسلمت إليه طائرة تستطيع الارتفاع إلى ٥٢٠٠ متراً مع أن قمم تلك السلسلة الجبلية تصل فى الارتفاع إلى سبعة آلاف متر . وطار مرموز ليبحث عن منفذ فيها . وبعد أن نجح فى الرمال ، واجه مرموز الجبال الشاهقة التى تقذف غطاءها الثلجى عند هبوب الرياح ، وواجه ذلك الشحوب الذى يصيب الأشياء قبل العاصفة ، وتلك الهزات العنيفة ، — بين جدران الجبال — التى ترغم الطيار على نزال مرير ، وقبل مرموز الدخول فى ذلك الصراع وهو يجهل كل شىء عن خصمه ، ولا يدرى أيخرج المرء حياً أم ميتاً من تلك الشدائد . كان مرموز «يحاول» من أجل الآخرين .

وأخيراً ، لفرط « محاولاته » ألفى نفسه سجيناً فى الأنديز .

سقط هو والميكانيكى على هضبة ارتفاعها أربعة آلاف متر وجوانبها عمودية ، فظلا يومين سوياً يبحثان عن طريق للخلاص ولكن المسالك سدت عليهما وعندئذ قاما بالمحاولة الأخيرة . دفعا بالطائرة نحو الفضاء وقفزا فيها فلما بلغت الهوة غاصت فيها ، وعند سقوطها اكتسبت سرعة كافية لتخضعها لآلات القيادة ، فمدّها مرموز فى مواجهة إحدى القمم ومست الطائرة القمة ، وكانت المياه تفيض من الأنابيب التى شققها التجمد أثناء الليل ،

ثم تعطلت الطائرة بعد سبع دقائق من الطيران واكتشف مرموز السهل الشيلى تحته كأنه أرض الميعاد .

وفى اليوم التالى عاود مرموز المحاولة .

ولما تم كشف جبال الأنديز وتحسن فن عبورها ، عهد مرموز بذلك الجزء من الخط إلى زميله جيوميه وذهب هو ليكتشف الليل .

لم تكن إضاءة محطاتنا الجوية قد تمت بعد ، فعند ما كان يريد مرموز الهبوط فى الليل كانت تُرسل نحوه إضاءة ضعيفة مصدرها ثلاثة مصابيح توقد « بالبنزين » .

ولقد نجح فى طيران الليل وفتح الطريق .

ولما روّض الليل ، حاول مرموز أن يُروّض المحيط وحمل البريد للمرة الأولى فى سنة ١٩٣١ من تولوز إلى بونس إيرس فى أربعة أيام . وعند عودته نفد الوقود منه مرموز فى وسط الأطلسى الجنوبى وكان البحر هائجاً ولكن سفينة أنقذته هو وملاحى طائرته والبريد .

وهكذا عبد مرموز الرمال والجبال والليل والبحر . وسقط أكثر من مرة فى الرمال والجبال والليل والبحر ، ولكنه لم يكن يعود إلا ليبدأ مرة أخرى .

وأخيراً بعد عمل دام اثنتى عشرة سنة ، أرسل مرموز — أثناء طيرانه فوق الأطلسى الجنوبى — رسالة قصيرة قال فيها إن المحرك الخلفى قد تحطم . ثم ختم السكون .

ولم يكن ذلك الخبر يبدو عظيم الخطر ولكن كل محطات الطيران من باريس إلى بونس إيرس بدأت سهرها فى قلق . فالعشرة دقائق لا قيمة لها فى الحياة اليومية ، ولكن قيمتها كبيرة فى الطيران . . . فذلك الوقت القصير يحوى حدثاً مجهولا ، وسواء أكان ذلك الحدث خطيراً أم غير خطير ، فإنه تم وانتهى ، ونطقت الأقدار بحكمها الذى لا مردّ له وقضت يدٌ حديدية على ملاّحى الطائرة بالهبوط سالمين أو محطَّمين ، ولكن الحُكم لا يُعلن لمن ينتظرون .

ومن منّا لم يعرف تلك الآمال الواهنة ، شيئاً فشيئاً ، وذلك الصمت الذى يزداد خطراً من دقيقة لأخرى كأنه مرض قاتل ؟ كنا مليئين بالأمل ثم مرّت الساعات وشعرنا أخيراً أن الوقت طال . وكان علينا أن ندرك أخيراً أن زملاءنا لن يعودوا وأنهم رقدوا فى الأطلسى الجنوبى ، رقدوا فى ذلك المحيط الذى طالما ذرعوا سماءه . لقد استقر مرموز فى خندقه ، كالحاصد جمع قمحه بعناية ثم نام فى حقله .

عند ما يلقى زميل حتفه بهذه الطريقة، يبدو موته متفقاً مع تقاليد المهنة بل ربما كان أقل إيلاماً من ميتة أخرى. حقاً لقد بَعُد ذلك الزميل، بَعْدَ أن وصل إلى تطوره الأخير، ولكن عمق الإحساس بفقده لم يبلغ بعدُ مبلغاً عظيما.

فمن عادتنا أن ننتظر طويلا لنلقى زملاءنا، إذ هم منتثرون فى الدنيا، أما زملاء خط الطيران فهم منتشرون من باريس إلى سانتياجو، منعزلون عن بعضهم كأنهم حراس لا يتخاطبون إلا لماماً. ولا بد من صدفة لتلمّ شعث أفراد هذه العائلة الكبيرة. فبعد سنوات من الصمت يجتمع الزملاء مصادفة، حول مائدة فى الدار البيضاء أو داكار أو بونس إيرس ويصلون ما انقطع من حديثهم ويجمعون شمل الذكريات القديمة ثم يعاودون الرحيل... وهكذا ترى الأرض يانعةً مجدبة. يانعة بهذه البساتين الخفية التى يصعب الوصول إليها، ولكن مهنتنا ترجعنا لها دائماً إن لم يكن اليوم فغداً، ولربما أبعدت الحياة ما بيننا وبين زملائنا، ولربما منعتنا ذكرهم إلا قليلا، ولكنهم هناك، لا ندرى أين، صامتون منسيون، ولكنهم أوفياء مخلصون! وإذا التقينا بهم فى الطريق هزوا أكتافنا بحماس جميل! نعم، إن من عادتنا الانتظار...

ولكننا ندرك شيئاً فشيئاً أننا لن نسمع ضحكة ذلك الزميل الرنانة ، ونحس أن ذلك البستان قد حُرّم علينا إلى الأبد ، وعند ذاك يبدأ حزننا الحقيق ، حزن لا يمزّق الأحشاء ، ولكنه حزن مرّ .

ولا عِوَضَ عن زميلنا المفقود، فلن يخلق المرء زملاء قدامى بمحض إرادته . وما من شيء يعدل ذلك الكنز من الذكريات المشتركة ، والأوقات التي قضيناها سوياً في شجار ووئام وكانت تفيض بالمشاعر القلبية . لا يستطيع المرء أن يعيد بناء أمثال تلك الصداقات ، فمن العبث أن تأمل تفيأ ظل شجرة لم تغرسها إلا منذ قليل .

وهكذا الحياة . غَنينا زمناً ، فزرعنا وأينع زرعنا ، ولكن ها هي ذى السنون تهدم بناءنا وتجتثّ زرعنا ويذهب الرفاق واحداً إثر آخر فيحرموننا ظلّهم الذى تفيأناه ويختلط بأحزاننا أسف دفين . ذلك هو إحساسنا بأننا نهرم .

هذا هو الدرس الذى علّمنا إياه مرموز وآخرون ، فإن عظمة مهنة ما قد تُقاس بمقدرتها على توحيد بنى الإنسان . وليست هناك إلا متعة فريدة ، تلك هى متعة العلاقات الانسانية .

فإذا عملنا فقط من أجل الربح المادي فإننا نبني بأيدينا جدران السجن الذي يحتوينا ونبقى به وحيدين إلا من نقودنا الفانية التي لا تجلب شيئاً يستحق الحياة.

وإذا بحثتُ في ذكرياتي عما ترك فيَّ أثراً خالداً، وإذا أحصيت الساعات المعدودة، فإني أراها تلك التي لا تستطيع ثروة أن تجلبها، فما من ثروة تشتري صداقة مرموز، ما من ثروة تنيل المرء صداقة زميل ربطته بنا إلى الأبد محن عشناها سوياً.

وليلة الطيران هذه بنجومها العديدة، وهذا الصفاء وهذه السيادة التي أحسها لبضع ساعات، كل ذلك لا يشتريه المال.

وهذه النظرة الجديدة للحياة بعد مرحلة شاقة، هذه الأشجار والزهور والنساء، وهذه البسمات وقد نضّرتها الحياة العائدة لنا مع الفجر، وهذه الموسيقى المنبعثة من الوجود والتي تعوضنا عن متاعبنا، كل ذلك لا يشتريه المال.

كلاّ ولا تلك الليلة التي قضيتها بالأراضي الثائرة والتي تعاودني ذكراها.

سقط ملاحو ثلاث طائرات على ساحل ريو دورو عند مغيب الشمس. هبط أولا زميلنا ريجيل بعد أن تحطمت آلات الحركة

بطائرته ثم نزل زميل آخر هو بورجات ليلتقط رجال الطائرة الأولى ولكن عطباً غير جسيم أرغمه على البقاء . وأخيراً هبطتُ أنا ، ولكن عند ما وصلتُ كان الليل قد خيّم على الكون ، فقررنا أن ننقذ طائرة بوجارت وأن ننتظر إلى الصباح لنقوم بالإصلاحات اللازمة على خير وجه .

وقبل عام تماماً ، سقط زميلانا جورب وأرابل فى نفس هذا المكان فذبحهما رجال القبائل الثائرين . وكنا نعلم أيضاً أن قافلة مغيرة قوامها ثلثمائة رجل مسلحين بالبنادق ، تخيّم فى إحدى نواحى بوچادور . وربما كانت هذه الطائرات الثلاث قد استرعتهم . وبدأنا سهرتنا التى قد تكون الأخيرة .

وأعددنا العدة للمساء . فأخرجنا من مخزن الحقائب خمسة أو ستة صناديق بضائع وأفرغناها مما فيها ووضعناها على هيئة دائرة وأشعلنا داخل كل منها شمعة ضئيلة لم تكن بمنجى من الرياح . وهكذا بنينا قرية بشرية ، فى قلب الصحراء ، وعلى ظهر هذه القشرة العارية لكوكبنا ، وفى عزلة تذكّر بأيام الخلق الأولى .

وتجمعنا لقضاء الليل فى ميدان قريتنا الكبير ، فى هذا

المكان الرملى حيث ترسل شمعاتنا ضوءاً شاحباً وانتظرنا . انتظرنا الصباح الذى قد ينقذنا ، وقد يسلمنا لرجال القبائل . ولا أدرى ما الذى جعل تلك الليلة شبيهة بليلة عيد الميلاد . كنا نقص ذكرياتنا ، ونتنادر ونغنى .

وتذوقنا ذلك المرح اللطيف الذى تحسته فى حفل حسن الاعداد . وذلك رغم أننا كنا فى غاية الفقر ؛ فما كنا نملك إلا الرياح والرمال والنجوم ، وذلك أمر شاق حتى على أشد الرهبان نسكا . كان هناك ستة أو سبعة رجال مجتمعين على ذلك الفراش القليل الإضاءة ، رجال لا يملكون شيئاً إلا ذكرياتهم ، ومع ذلك كانوا يتقاسمون ثروات عظيمة خفية .

وأخيراً نلتقى . نسير طويلا جنباً إلى جنب ، وكلنا سجين صمته ، أو نتبادل كلمات لا تنقل معنى ، ولكن تجىء ساعة الخطر فنتكاتف وندرك أننا أعضاء جماعة واحدة ، وتتسع آفاقنا عند ما نكتشف ضمائر الآخرين . وينظر كل منا للآخر ، وعلى شفاهنا بسمة عظيمة . إننا كذلك السجين الذى تخلص من سجنه فبهرته عظمة البحر وسعته .

٢

وأنت ياجيوميه ، سأقول عنك بضع كلمات ، ولكنى لن أضايقك بأن أصر على توكيد شجاعتك وكفاءتك الفنية ، وأنا أرمى إلى غرض آخر عند ما أتحدث عن أروع مخاطراتك .

فهناك صفة لا اسم لها ، وربما يكون اسمها الجدّ ، ولكن هذه الكلمة لا تكفى ، لأنّ تلك الصفة قد تكون مصحوبة بأعظم ومضات المرح الباسم . إنها صفة النجّار الذى يجلس أمام قطعة الخشب ، يتحسسها ويقيسها ، ولا يستهين بعمله ، وإنما يستجمع كل فضائله ومزاياه ليعالجها .

لقد قرأت قصة تمجّد مخاطرتك ياجيوميه ، وإن لى حسابا قديماً مع تلك الصورة المشوهة التى رسموها لك ، ولا بد من تصفية هذا الحساب . لقد صوروك كـ«جافروش»* كما لو كانت الشجاعة تقتضى أن يتنزّل الانسان إلى درجة التهكم والسخرية فى قلب أعظم الأخطار تهديداً للحياة ، وفى ساعة الموت . إنك

---

* شخصية روائية تمثل صبي باريس الساخر المستهزئ .

لا تشعر بالحاجة إلى السخرية من أعدائك قبل مواجهتهم . فأمام العاصفة العنيفة ، تقف فتحكم عليها وتقول : « هــذه عاصفة عنيفة » ثم تقبل منازلتها وتقيس عنفها وقوتها .

وسأدلى بشهادتى عنك ياجيوميه .

كنتَ قد اختفيت فى الشتاء ، منــذ خمسين ساعة ، أثناء طيرانك فى الأنديز . وعند عودتى من قلب بتاجونيا لحقتُ بالطيار ديلى فى مندوزا لنبحث عنك ، ولقد نقّب كل منا خمسة أيام سويا ، فى تلك الأكوام من الجبال دون أن نكتشف شيئاً فلم تكن الطائرتان كافيتين . وخُيل إلينا أن مائة سرب لو طارت مائة عام لما أتمّت ارتياد تلك السلسلة الضخمــة من الجبال التى ترتفع قممها حتى سبعة آلاف من الأمتار ، وفقدنا كل أمل . وحتى مهرّبو البضائع ، وهم لصوص يرتكبون جريمة فى تلك الأصقاع من أجل خمسة فرنكات ، حتى أولئك ، رفضوا أن يخاطروا بتسيير قوافل للمعونة فى تلك الجبــال وقالوا : « إن فى ذلك تعريضاً لحياتنا للخطر ، فجبال الأنديز لا تُرجع أحداً فى الشتاء . » . ولما هبطنا الأرض أنا وديلى فى سنتياجو نصحنا الضباطُ الشيليون بعدم مواصلة البحث وقالوا : «إننا فى الشتاء ، حتى لو كان زميلكم قــد هبط سالماً فإنه لن يستطيع

الحياة فى الليل . فالليل هناك يمرّ على المرء فيحيله ثلجاً . »
ولما عاودتُ الانزلاق بين جدران الجبال وعُمُدها الشامخة ، خُيل إلىّ أنى لم أعد أبحث عنك ، وإنما أسهر فى سكون على جدثك المُسجى فى معبد الثلج .

وأخيراً ، فى سابع يوم ، بينما كنتُ أتناول طعام الغداء فى أحد مطاعم مندوزا ، أثناء فترة راحة بين رحلتين ، دفع البابَ رجل وصاح :

— جيوميه ما زال حيًا .

ونهض الكل يتعانقون ، وهم لا يعرف بعضهم بعضا .

وبعد عشر دقائق كنتُ أطير ومعى اثنان من الميكانيكيين وهم لفيبر وأبرى . وبعد ذلك بأربعين دقيقة هبطتُ حذاء طريق إذ تبينتُ — ولا أدرى كيف كان ذلك — العربة التى كانت تحملك بجوار سان رافاييل . وكان لقاء رائعاً وبكينا جميعاً وضممناك إلى صدورنا ضماً قوياً حتى خشينا عليك التلف ، أيها الحىّ المبعوث ، يا من صنعت معجزتك بيديك . وحينئذ نطقت بأول جملة مفهومة ، وكانت فخراً عظيماً للانسان : « أقسم لك أن ما قمتُ به لم يكن يستطيع حيوان أن يفعله قط » .

وقصصتَ علينا قصتك فيما بعد .

هبت عاصفة ثلجية فألقت من الثلج ما سمكه خمسة أمتار ، فى يومين ، على السفح الشيلى لجبال الأنديز ، وسد الثلج المنافذ حتى أن رجال الطيران الأمريكيين قفلوا راجعين ولكنك سرت فى طريقك باحثاً عن منفذ فى السماء . وقد اكتشفته إلى الجنوب بقليل على ارتفاع خمسمائة وستة آلاف متر ، أى فوق السحاب ، فالسحب لم تكن ترتفع أكثر من ستة آلاف متر ، ولم يكن يظهر فى الفضاء إلا هامات الجبال الشامخة ، ثم وجهت مقدم طائرتك نحو الأرجنتين .

وفى مثل تلك التيارات الهابطة ، يشعر الطيارون أحيانا بنوع غريب من الضيق . فان المحرك يستمر فى الدوران ولكن الطائرة تغوص رغم ذلك . ويقاوم الطيار ليحتفظ بارتفاعه ولكن عبثاً فالطائرة تستمر فى الهبوط . وحينئذ يستسلم الطيار ويترك طائرته تجنح ذات اليمين أو ذات الشمال ليرتكن إلى القمة التى تلطمها الرياح ، ولكن الطائرة تستمر فى الغوص ويخيل للطيار أن السماء كلها تهبط ويحس كأنه قد اختلط بأحد الحوادث الكونية . ولا مكان يلجأ اليه ، ويحاول عبثاً العودة إلى المناطق التى كان الهواء يسنده فيها بقوة وصلابة كأنه العُمُد ولكن

لا عُمُد هنا ، فقد تخلخل كل شيء . ويغوص المرء فى خرائب السكون نحو السحاب الصاعد رويداً رويداً حتى يصله ويختنق فيه.

وقلتَ لنا :

« ولقد أوشكتُ أن أوقف المحرك ، ولكنى عدلت عن ذلك . ويلقى الانسان تيارات هابطة نحو السحب ، وتبدو السحب كأنها ثابتة لأنها دائمة التكوّن فى ذلك الارتفاع . إن كل شيء عجيب فى الجبال العالية . . . »

ويالها من سحب . . . !

« وبعد أن وقعتُ فى ذلك الشرك ، تركت عجلات القيادة وتعلّقتُ بقوة فى المقعد حتى لا تلقى بىَ التيارات خارج الطائرة . وكانت الهزّات عنيفة حتى أن سيور الجلد أدمت كتفىّ وكادت تتمزق . ومنعنى الجَمَد من رؤية أى شيء . وسقطت كما تسقط قبعة من ارتفاع ستة آلاف متر إلى ارتفاع خمسة وثلاثة آلاف متر .

« وفى ذلك الارتفاع ، لمحت كُتلة أفقية سوداء ساعدتنى على تقويم الطائرة إذ كانت بركة أعرفها وهى لاجو ناديامنت ، وكنتُ أعرف أنها كائنة فى قاع قمع كبير ، أحد جوانبه هو بركان مايبى الذى يرتفع إلى تسعمائة وستة آلاف متر . تخلصتُ من السحاب

ولكن دوّامات الثلج ما برحت تغشي بصري ، وما كان بوسعي الخلاص من تلك البحيرة دون أن أصطدم بأحد جوانب القمع . عندئذ أخذت أدور حول البحيرة على ارتفاع ثلاثين متراً حتى نفد الوقود بعد أن قضيتُ ساعتين في تلك المحاولات . ثم هبطت وإذا بالطائرة تنقلب ، ولما خرجتُ منها أوقعتني العاصفة أرضاً ، فنهضت فأوقعتني ثانية ، فاضطررت أن أنزلق تحت مؤخر الطائرة وأن أحفر مخبأ في الثلج واحتميتُ بحقائب البريد وبقيتُ هكذا ثمانيا وأربعين ساعة .

« وبعد ذلك هدأت العاصفة ، فبدأت السير وسرتُ خمسة ايام وأربع ليال . »

ولكن ماذا بقي منك ياجيوميه ؟ لقد وجدناك حقاً ، ولكنك تحجّرت وجفّ عودك وضؤلت جثتك فأصبحت كالمرأة العجوز ! وحملتُك في نفس المساء إلى مندوزا حيث جرَت عليك الملاءات البيض جريان البلسم ، ولكنها لم تشفك . فقد سدّ عليك هذا الجسد المحطم جميع المسالك ، وكنت تقلبه من جهة إلى أخرى دون أن تنجح في إسكانه مملكة النوم . لم يكن جسدك قد نسي بعدُ الصخور والثلوج ، فقد تركت آثارها

عليك ، وكنتُ أرقب وجهك الأسود المتورم وكأنه ثمرة شديدة النضج أصابتها الضربات ، وكنتَ قبيحاً جداً وبائساً إذ فقدتَ آلتى عملك الجميلتين ، فقدت يديك اللتين تجمّدتا من الثلج ، وعندما كنت تجلس على حافة السرير لتستطيع التنفس ، كانت قدماك الجامدتان تتدلّيان كأنهما كتلة ميتة . لم تكن قد أنجزت رحلتك بعد ، فما زلت تلهث . وعندما تتقلب على الوسادة باحثاً عن السلام ، يهاجمك موكب من الصور لا تستطيع له دفعا . موكب مختف فى حنايا رأسك ، نَفِد صبرُه فقام ليتحرك ، ويسير فى رأسك ، وهكذا كنتَ تعاود القتال ضد أعداء بعثوا من قبورهم .

وكنتُ أسقيك الكثير من المنقوعات الساخنة :

— إشرب ياعزيزى .

— أتدرى ما الذى أدهشنى أكثر من أى شىء آخر . . .

أنت ملاكم منتصر ، ما زالت آثار الضربات العنيفة فيك ، وإنك لتحيا مخاطرتك العجيبة مرة أخرى . وتتخلص منها شيئا فشيئاً . وكنتُ أتخيلك خلال قصتك الليلية سائراً بلا عصا ولا حبال ولا طعام ، متسلقاً قمماً ارتفاعها خمسمائة وأربعة آلاف

من الأمتار ، أو متقدماً على حافة جبال عمودية الجدران ، دامىَ القدمين والركبتين واليدين ، فى برد درجته أربعون تحت الصفر . وغاض مَعين دمك ونضبت قواك وذهب عقلك وأنت تتقدم بعناد كعناد النمل ثم ترجع لتتحاشى إحدى العقبات ، وتنهض من كبواتك وتصعد السفوح التى لا توصل إلا إلى الفضاء ، وتمنع نفسك الراحة لأنك لو استرحت لما نهضتَ من سرير الثلج .

وإذا سقطتَ نهضتَ مسرعاً حتى لا يحيلك الثلج حجراً . وكان البرد يجمّد أوصالك من لحظة لأخرى ، وإذا تذوقتَ طعم الراحة لمدة دقيقة أكثر من اللازم ، كان عليك أن تحرّك أعضاءك الميتة لتستطيع القيام .

وكنتَ تقاوم المغريات ، وقلت لى : « فى الثلج يفقد الانسان غريزة البقاء . فبعد سير يومين أو ثلاثة أو أربعة ، لا يتمنى المرء إلا النوم . وطالما تمنيته ولكنى كنتُ أقول لنفسى : إن امرأتى تعتقد أنى لا أنفكّ أسير ما دمتُ حيا . وزملائى يعتقدون أنى أسير . إنهم جميعاً يثقون بى ولأكونن لعيناً إذا لم أسر . »

وكنتَ تسير ، وتقطع بطرف سكينك كل يوم جزءاً من

خياطة حذائك حتى يسع قدميك المتجمدتين المتورمتين .

وبحثَ لى بهذا السر العجيب :

« من اليوم الثانى ، كان أعظم ما يشغلنى هو أن أمنع نفسى من التفكير . كنتُ أتألم كثيراً وكان مصيرى ميئوساً منه فلأظفر بالشجاعة الكافية للسير ، كان علىّ ألا أفكر فى ذلك . ولسوء الحظ لم أكن أسيطر على عقلى تمام السيطرة إذ كان يجرى كأنه عملية توليد الكهرباء ، ولكننى كنتُ ما أزال قادراً على أن أختار لعقلى صوراً ، فكنتُ أفكر فى فِلْم أو فى كتاب ولكن سرعان ما ينفد الفلم أو الكتاب ، وأعود سريعاً إلى التفكير فى مصيرى ، وحينئذ كنتُ أدفع بعقلى إلى ذكريات أخريات . . . »

وذات مرة ، انزلقت وانطرحتَ على الثلج وحينئذ تنازلتَ عن النهوض . كنتَ كملاكم أنضبت ضربة قوية كل ما فيه من حمية ، وانطرح يستمع إلى عدّ الثوانى واحدة فواحدة ، وهو فى عالم عجيب ، حتى الثانية العاشرة التى لا قومة بعدها .

« لقد فعلت ما استطعتُ فعله ، وليس لى أى أمل ، فَلِمَ التصميم على هذا العذاب ؟ » . كان يكفيكَ أن تقفل عينيك لتنال السلام فى هذا العالم ولتمحو منه الصخور والثلوج . فما

تكاد تغمض عينيك حتى تختفى الضربات والكبوات والأعضاء الممزقة والبرد المحرق ، وحتى لا تجد أثراً لعبء الحياة، ذلك العبء الذى لا بد لنا من حمله أنى ذهبنا كالحيوان . وبدأت تعرف طعم ذلك البرد السام الشبيه بالمورفين وقد صار يملؤك الآن نعيما. كانت حياتك تحتمى حول قلبك . ثم صار ضميرك يهجر شيئاً فشيئاً مناطق جسمك البعيدة ، جسمك الذى شبع ألماً فصار كجسم الحيوان ثم أضحى جماداً لا يحس .

وحتى وساوسك قد سكنت ولم تعد نداءاتنا تصل إلى مسمعك أو بالأصح كنت تسمع تلك النداءات كأنها فى حلم . وكنت تجيب بسير تسيره فى حلم ، سير سريع هيّن يفتح أمامك بلا عناء كل ملاذ الأرض . وكم كان هيناً أن تنزلق كذلك فى عالم أضحى عظيم الهناء لك !. . . وبخلتَ علينا بعودتك ياچيوميه .

ثم أتت وخزات الضمير من مكان قصىّ فى نفسك . وامتزجت بذلك الحلم تفاصيل دقيقة : « فكرتُ فى امرأتى . إن قسيمة التأمين تحميها غائلة الفقر ، نعم ، ولكن . . . »

فى حالة وفاة شخص يُؤجل إعلان وفاته الرسمية مدة أربع سنوات ، فبدت لك هذه الحقيقة واضحة مدوية ومحت

ما عداها من صور . وكنتَ حينذاك مستلقياً على وجهك على منحدر ثلجى فاذا أتى الصيف سار جسمك مع الطين نحو هوّة من آلاف الهوات التى فى جبال الأنديز . وكنتَ تعلم ذلك ولـكنك كنت تعلم أيضاً أن هناك صخرة بارزة تراها أمامك على بعـد خمسين متراً : « لو نهضتُ فلربما استطعت أن أصلها . ولو بقيت على تلك الصخرة فانهم سيجدوننى فى الصيف . »

ولما نهضتَ سرت ليلتين وثلاثة أيام .

ولـكنك لم تفكر فى أن تسير أبعد من ذلك :

« عرفتُ اقتراب النهاية بعلامات كثيرة . وهاك إحداها . كنتُ مضطراً أن أتوقف كل ساعتين لأشق حـذائى ولأدلك بالثلج قدمىّ المتورمتين ولأدع قلبى يستريح . ولـكن فى الأيام الأخيرة بدأت أفقد الذاكرة . كنتُ أسير مدة طويلة ثم يضىء النور حنايا نفسى فأجد أنى قد نسيتُ شيئاً . ففى أول مرة نسيتُ قفازاً وكان ذلك خطيراً فى مثل هذا البرد . كنتُ قد وضعته أمامى ثم سرت دون أن ألتقطه . ثم نسيت ساعتى ، ثم سكينى ، ثم بوصلتى ، وفى كل مرة توقفت فيها كنت أزداد فقراً على فقر .

« إن ما ينقذ الانسان هو أن يتقدم خطوة واحدة ثم يحون الأمر . . . »

« أقسم لك أن ما قمتُ به ، لم يكن يستطيع حيوان أن نفعله أبداً . » هذه العبارة هى أنبل ما أعرف من الكلم ، هذه العبارة تضع الانسان فى مكانه بين الكائنات وتشرفه وتبين مراتب الخليقة . وما أكثر ما تعود إلى ذاكرتى . وأخيراً نمتَ وكان ضميرك قد ولّى ولكنه سيُبعث مرة أخرى فى هذا الجسد المحطم البالى المحترق ، سيُبعث مرة ثانية ويسيطر على الجسد ولن يعود الجسد إلا آلة له وخادماً مطيعاً . ولقد عرفتَ أيضاً أن تعبر عن تحرك ياجيوميه بهذه الآلة الجيدة :

« فى اليوم الثالث من سيرى وأنا بلا طعام أحسست أن قلبى لم يعد جيداً جداً ، وكنتُ أسير على سفح عمودى ، معلقاً فى الفضاء وأحفر حفرتين كبيرتين لأريح فيهما يدىَّ ، وإذا بقلبى يصيبه التعطل . كان يتردد ثم يعاود الخفقان ثم يخفق خفقاً غير منتظم . وأحسست أنه لو تردد لحظة واحدة أكثر من ذلك لنفضتُ يدى من الأمر . لم أتحرك ، وبقيتُ أنصت لنفسى . لم يحدث قط وأنا فى الطائرة أن بقيتُ معلقاً هكذا قرب محركى

مثلما كنت معلقاً حينذاك بقلبي . وكنت أقول له : هيا بنا ، قليلا من الجهد ! حاول أن تستمر فى الخفقان . . . إنه قلب من نوع جيد ! كان يتردد ولكنه كان يعاود الخفقان دائما . آه لو علمت ، كم كنت فخوراً بذلك القلب ! »

وأخيراً نمتَ نوما متقطعاً بتلك الحجرة بمندوزا حيث كنت أسهر عليك . وفكرتُ قائلا : لو كلمناه عن شجاعته ، لرفع أكتافه ساخراً . ولكنا نخونه أيضاً لو عظّمنا تواضعه . فان مكانه بعيد جداً عن تلك الصفة العادية . وإذا كان يسخر فانما يفعل هذا لحكمته . إنه يعرف أن الناس إذا وقعوا فى أمر جلل ذهب الروع من قلوبهم . فما يُرهب الانسان إلا ما يجهله . أما إذا واجه أى شخص ذلك المجهول فانه لا يعود مجهولا مخيفاً . وإذا فحصنا الأمر ببصيرة نيرة رأينا أن شجاعة جيوميه هى قبل كل شىء نتيجة لاستقامته .

ولكن صفته الأساسية ليست فى ذلك المكان . فعظمته هى فى إحساسه بالمسئولية ، إحساسه أنه مسؤول عن نفسه وعن بريده وعن زملائه الذين يعمّر الأمل قلوبهم ، فبين يديه آلامهم وأفراحهم . إنه مسؤول عما يبنيه الأحياء هناك ، وعليه أن

يشاركهم فى البناء ، إنه مسؤول — بعض الشىء — عن مصير بنى الانسان ، بقدر ما يسمح بذلك عمله .

إنه واحد من أولئك الكرام الذين يأخذون على عاتقهم مسؤولية عظيمة ويبسطون ظلهم فوق آفاق واسعة . وكونك رجلا هو أن تشعر بالمسؤولية ، وأن تعرف العار عندما ترى أمامك بؤساً يبدو أنه ليس من عملك ، وأن تفخر بنصر ناله الزملاء ، وأن تشعر عندما تضع لَبِنتك أنك تشترك فى بناء العالم .

ويود البعض تشبيه أولئك الرجال بمصارعى الثيران أو باللاعبين ، فيمتدحون احتقارهم للموت ، ولكنى لا أبالى ذلك الاحتقار للموت إذا لم يكن فى الأصل قائماً على شعور بالمسؤولية التى يقبلها الانسان عن رضى وإلا كان ذلك الاحتقار للموت علامة عجز أو رعونة شباب . عرفتُ شابا انتحر ، ولا أدرى أى عذاب أصابه فى الحب فدفعه إلى أن يطلق الرصاص بعناية ويصوبه إلى قلبه ، ولا أدرى أى إغراء أدبى بعثه على لبس قفاز أبيض عندما قتل نفسه . ولكنى أذكر أنى لم أجد شيئاً من النبل فى هذا المنظر المحزن ، وإنما شعرتُ بما فيه من بؤس وحقارة إذ لم يكن وراء هذه الطلعة الجميلة وتحت هذه الجمجمة الانسانية إلا دورة فتاة عادية شبيهة بالأخريات !

وأمام هذا المصير الحقير، ذكرتُ موت رجل حقاً. موت بستانى كان يقول لى: « أتعرف، لقد كان العرق يتصبب منى أحياناً وأنا أقلّب الأرض. وكان الروماتزم يؤلمنى فى ساق وكنتُ ألعن تلك العبودية، والآن كم أود أن أعمل الفأس فى الأرض. فإنه لعمل جميل. وكم يشعر المرء بالحرية وهو يقلب الأرض! من سيشذب أشجارى من بعدى؟ » كان يخيل إلى ذلك البستانى أنه مخلّف أرضاً مواتا وكوكباً جدبا. كان الحب يربط بينه وبين أشجار الأرض قاطبة. كان أريحياً جواداً وشريفاً عظيما. كان كجيوميه، رجلا شجاعا يكافح الموت باسم ما فيه من خليقة.

٣

الطائرة

وماذا يهم ياجيتوميه إذا كنت تقضى أيام عملك ولياليه فى ضبط مقاييس الضغط وفى موازنة الأجهزة وفى التسمّع لأنفاس المحرّكات وفى الاحتماء وراء خمسة عشر طنّاً من المعدن ، ماذا يهم كل ذلك إذا كانت المشاكل التى تواجهك أخيراً هى مشاكل إنسان . وإنك لترقى مرة واحدة إلى سموّ ساكن الجبال وإنك لكالشاعر ، تعرف كيف تتذوق مطلع الفجر . وكم تمنيتَ وأنت فى غيابة ليل داج عصيب ، كم تمنيتَ ، ظهور تلك الباقة الشاحبة ، ذلك الضياء الذى يبرز من الأراضى السوداء فى ناحية الشرق ، تلك النافورة العجيبة التى تسيل أحياناً أمامك ، فتهبك البرء وكنت تظن أنك ميت لا محالة .

واستخدام هذه الآلة الدقيقة لم يجعل منك رجلا فنيا جافا .
ويخيل إلىّ أنهم يخلطون بين الغاية والوسيلة ، أولئك الذين ينزعجون كثيراً من تقدمنا العلمى . وكل من يكافح من أجل المزايا المادية فقط لا يجنى شيئاً يستحق الحياة . ولكن الآلة ليست غاية . والطائرة ليست غاية : إنها أداة ، أداة كالمحراث .

وإذا حسبنا أن الآلة تفسد الانسان فما ذلك إلا لأنه ينقصنا قليل من الرجوع إلى الوراء لنستطيع الحكم على مدى التحولات السريعة التى تمت أمامنا . فما قيمة مائة عام من تاريخ الآلات بالنسبة لمائة ألف عام من تاريخ البشر ؟ إننا لم نكد نستقر وسط دنيا المناجم ومحطات توليد الكهرباء ، إننا لم نكد نستقر فى بيتنا الجديد الذى لم يتمّ بناؤه بعد . لقد تغير سريعاً كل شىء حولنا ، تغيرت العلاقات بين البشر وتغيرت أحوال العمل وتغيرت العادات . وحتى نفسيتنا قد انقلبت رأساً على عقب . فأفكار الفراق والغياب والبعد والعودة لم تعد تحوى ما كانت تشتمل عليه من معان وإن بقيت الكلمات دون تغيير . وهكذا نتكلم فى دنيا اليوم لغة أنشئت لعالم الأمس . ويُخيل إلينا أن حياة الأمس أكثر استجابة لطبيعتنا ، وما ذلك إلا لأنها أكثر استجابة للغتنا .

وكل تقدم جديد يبعدنا قليلا عن عادات لم نكد نتعودها ، ونحن فى الحق مهاجرون لم نؤسس بعدُ وطننا الجديد .

وكلنا أحداث متبربرون ما زالت لعبنا الجديدة تبهرنا . وليس لمسابقات الطيران تفسير غير ذلك ، فهـذا الطيار يرتفع أكثر من زميله أو يطير أسرع منه . وننسى نحن لِمَ جعلناه يطير . فنهتم بالسباق نفسه وننسى الغاية . وهكذا الأمر فى كل شئ . فترى القائد الذى يؤسس أمبراطورية ، يهتم بالغزو قبل كل شئ . وترى الجندى يحتقر المدنيين المستعمِرين . ولـكن ألم يكن الغرض من تلك الحملة إقامة هذا المستعمَر ؟ وهكذا الحال فى حماسنا للتقدم الذى أحرزناه . استخدمنا الناس لإنشاء الطرق الحديدية وإقامة المصانع وحفر آبار البترول ونسينا أننا نقيم تلك المنشآت لخدمة الناس . وكان سلوكنا أثناء الحملة كسلوك الجنود . ولـكن لا بد لنا الآن من أن نستعمر . لابد أن نجعل بيتنا الجديد — الذى لم يتخذ له طابعاً بعد — يفيض بالحياة . كانت الحقيقة بالنسبة للبعض هى البناء ، فأصبحت بالنسبة للآخرين ، هى السكنى .

وسيصبح منزلنا شيئاً فشيئاً أكثر ملاءمة للطبيعة الإنسانية .

وكلما تحسنت الآلة نفسها أمحت واختفت خلف وظيفتها. ويبدو أن كل جهد الانسان الفنى، وكل ما يحسبه من حساب، وكل سهره فى عمل الرسوم، إنما يوصل إلى غاية واحدة هى البساطة، وكأنه لم تكن هناك محالة من قيام أجيال عديدة بمختلف التجارب، لتستخلص تلك الاستدارة الرائعة التى نشاهدها فى الأعمدة أو فى أجسام السفن أو الطائرات حتى تهبها ذلك الجمال الطبيعى الذى نراه فى استدارة ثدى أو كتف إنسانى. وهكذا يبدو أن عمل المهندسين والرسامين والمحاسبين ليس إلا صقل ومحو وتخفيف أثر الاتصال بين جزءين غير متشابهين، أى تنسيق ذلك الجناح وموازنته حتى يصبح غير ملحوظ وحتى لا يعود هناك جناح معلق بجسد وإنما يكون هناك جسم كامل الجمال انبعث أخيراً من المادة الأولية، جسم التحمت أجزاؤه بطريقة خفية وصيغ كما تصاغ القصائد. ويبدو أننا نصل إلى الإتقان التام عندما لا يكون هناك أى داع لحذف شئ وليس عندما لا يكون هناك داع لإضافة شئ. وفى نهاية تطور الآلة نجد أنها تختفى.

وهكذا بإتقان الاختراع نصل إلى حالة ينمحى فيها الاختراع نفسه. فكما تنمحى من الآلة شيئاً فشيئاً كل ميكانيكية ظاهرة

وتبدو فى آخر الأمر طبيعية كحجر صقله البحر ، كذلك كان رائعاً أن ننسى الآلة شيئاً فشيئاً حين استعمالها .

وكنا فى سالف الأيام نجد أنفسنا أمام مصنع معقد . أما اليوم فإننا ننسى أن المحرك يدور ، فهو يؤدى وظيفته وهى الدوران ، كما يخفق القلب ، ولا نلتفت نحن إلى خفقان قلبنا . فلم تعد الآلة تستغرق انتباهنا ، وأصبحنا نرى من خلالها وبوساطتها الطبيعة القديمة ، الطبيعة التى يلتقى بها البستانى والملاّح والشاعر .

فعند ما يطير الطيّار يدخل فى عالم يتصل فيه بالماء وبالهواء ، وعند ما تندفع المحركات وتمضى الطائرة المائية شاقة البحر ضد صدمات الأمواج يُسمع جرس كأنه قرع الطبول ، ويمضى الطيار فى عمله حتى ليكاد ظهره أن ينقصم ، ويحس كلما أخذت الطائرة المائية فى الاسراع أنها تحمّل بالقوة شيئاً فشيئاً ، ويحس فى هذا الجسم الثقيل تهيؤ الطائرة للطيران ، وعندئذ يطبق يديه على آلات القيادة ويتسلم فى راحتيه تلك القوة كأنها هبة من السماء وتصبح تلك الآلات رسل قدرته ، حتى إذا بلغت هذه القدرة أشدها ، فصل الطيار طائرته عن الماء بسهولة عظيمة ، واستقر بها فى الهواء .

٤

الطائرة والكوكب

١

الطائرة آلة من غير شك ، ولكن يا لها من أداة تحليل عظيمة ! فلقد مكنتنا هذه الأداة من رفع النقاب عن وجه الأرض فعرفناه على حقيقته . خدعتنا الطرق طيلة قرون ، وكنا كتلك الملكة التى أرادت زيارة رعاياها لترى أكانوا ينعمون بحكمها ، فأقام رجال بلاطها — ليخدعوها — الزينات الجميلة فى طريقها واستأجروا بعض الناس ليرقصوا أمامها . فلم تر شيئاً من مملكتها إلا هذا الخيط الضئيل ، ولم تعرف قط أن فى صميم الريف قوماً يموتون جوعاً ويلعنونها .

وهكذا سرنا فى هذه الطرق المتعرجة متجنبين الأراضى القاحلة والصخور والرمال ، سرنا فى هذه الطرق التى تستجيب لحاجات الانسان فتجرى من نبع إلى آخر ، تحمل الفلاحين من منازلهم إلى حقول القمح ، وتستقبل ، أمام الحظائر، الماشية وهى مازالت نائمة ، وتدفعها فى الفجر إلى حقول البرسيم . وتصل هذه القرية بقرية أخرى لأن سكان القريتين يتزاوجون . وحتى لو خاطر أحد الطرق فاخترق الصحراء فانك تراه ينثنى عشرات المرات لينعم بالواحات .

وهكذا خدعتنا انثناءاتها كما تخدع الأكاذيب المعسولة ، وسرنا أثناء رحلاتنا بأراض يانعة وحدائق غلب ومراع منبسطة تجعلنا نرسم صورة جميلة لسجننا. وحسبنا هذا الكوكب غضاً يانعاً.

ولكن نظرنا احتد وتقدمنا تقدماً قاسياً . وعلمتنا الطائرة أن نسير فى خط مستقيم . فما نكاد نغادر المكان حتى نودع تلك الطرق التى تنعطف نحو المساقى والحظائر وتنثنى من مدينة لأخرى ، ونتخلص بذلك من عبودية حبيبة ؛ إذ لانعود فى حاجة إلى الينابيع ، ونتجه رأساً إلى أغراضنا النائية . وعندئذ نكتشف من أعلى طرقنا المستقيمة القاعدة الأساسية التى تستقر عليها الصخور والرمال والأملاح ، تلك القاعدة التى تهبط عليها الحياة

أحياناً فترى الزهر وسط اليباب كقليل من الطحالب فى قاع أرض خراب .

وحين نطير نصبح علماء طبيعة وعلماء ، حياة فنفحص حضاراتنا التى تزين بطون الوديان ، والتى تنمو أحياناً فتزهر وتتفتح كأزهار البساتين . وترانا عندئذ نقوّم الإنسان بميزان الكون ونرقبه من نوافذ طائرتنا كما لو كنا نفحصه خلال آلات دراسية ، وترانا عندئذ نعيد قراءة تاريخنا .

٢

عند اتجاه الطيار إلى مضيق ماچلان جنوب جاليجوس بقليل ، يطير فوق رواسب بركانية قديمة سمكها عشرون متراً . ثم يقابل عدة رواسب أخرى كالكثبان ، ولكل كثيب منها فتحة من جانبه وليس بينها بركان نخور ثائر كفيزوف ، إذ قد عمّها جميعاً الهدوء . ويستشعر ذلك الهدوء وهو دهش وسط هذا المنظر الذى فقد صبغته . فى هذا المكان كانت البراكين تتجاوب بلهبها وبمقذوفاتها فاذا بها اليوم أرض خرساء ، يزينها هنا وهناك جَمَد أسود .

وأبعد من هذا المكان تُرى براكين أعرق فى القدم ، ولذا تجدها متدثرة بلباس من الخضرة المذهبة ، وقد تلقى بها أحياناً شجرة نامية فى فوهة بركان قديم كأنها زهرة فى مزهرة عتيقة . ويبدو السهل فى ضوء آخر النهار كأنه بستان يحليه عشب قصير ولا يُرى فى الأرض أى بروز إلا حول الفوهات القديمة الضخمة . وتجرى هنا أرنب برية ، ويطير هناك عصفور . إنها الحياة ، استولت أخيراً على كوكب جديد .

وأخيراً قبل پونتا أرناس ترى آخر الفوهات وقد شُدت ، والانحناءات البراكين وقد غطاها عشب متصل يمحو ما فى الأرض من شقوق . فاذا بالأرض ملساء والانحدارات خفيفة حتى لينسى المرء أصلها . ويمحو ذلك العشب أثر البراكين .

فها هى ذى أبعد مدن الجنوب ، خلقتها مصادفة محضة ، إذ وجد قليل من التربة بين حمم البراكين وثلوج الجنوب . وكم هى محسوسة معجزة الانسان قرب هذه الحمم السوداء! وياله من لقاء عجيب ! فكيف ولماذا أتى ذلك المسافر ليزور هذه البساتين المعدة ، التى لا تصلح لسكناه إلا لفترة قصيرة جداً ، لعصر جيولوجى واحد ، ليوم مبارك بين الأيام !

وهبطت بونتا أرناس فى هدأة السماء وارتكنت إلى نافورة وأخذت أرقب الفتيات . وعلى قيد خطوتين من سحرهن زاد شعورى بسر الإنسان الغامض . ففى عالم تتصل فيه الحياة بالحياة ، وفى عالم تختلط فيه الزهور بالزهور على فراش الريح ، وتعرف فيه الطيور كل بنى جنسها ، فى هذا العالم ، ليس هناك إلا البشر ، يتقاطعون ويبنون وحدتهم .

فياله من فراغ عظيم ذلك الذى خلقه بينهم نصيبهم من العقل ! هذه فتاة تحلم وتكوّن لنفسها عالماً فكيف أستطيع أن أفهمها ؟ وماذا تعرف عن فتاة تعود إلى بيتها بخطوات وئيدة ، خفيضة العينين ، تبسم لنفسها وقد امتلأت بالخيالات وبمعسول الأكاذيب ؟ لقد استطاعت أن تكوّن لنفسها عالماً تعيش فيه ، عالما خلقته من أفكار حبيبها وصوته وصمته ، ثم أضحى كل من عداه برابرة بالنسبة إليها . وإنى لأراها سجينة سرها وعاداتها وأصداء ذاكرتها الغانية ، حتى لأحسها أكثر بعداً مما لو كانت فى كوكب آخر . هذه الفتاة التى ولدت أمس من ثرى البراكين ومعشوشب الأرض وملح البحار ، ها هى ذى تضفى على نفسها مسحة آلهية .

بونتا أرناس ! ارتكنت إلى نافورة . . فرأيت عجائز

علا أن منها الجرار . ولن أعرف شيئاً عن قصة حياتهن . أللهم إلا حركة الخادمات التى أبدينها ساعتئذ . ورأيت طفلا يبكى فى صمت وظهره إلى الحائط ، ولن يبقى شئ منه فى ذاكرتى . أللهم إلا صورة طفل جميل فقد السلوة إلى الأبد . لقد كنت هناك غريباً عن أولئك الناس ولم أستطع أن أنفذ فى ممالكهم .

فعلى أى مسرح رقيق البناء تمثل تلك القصة الكبيرة ، قصة العداوة والصداقة والبهجة الانسانية ! ومن أين للناس هذا الخلود ، وهم معرضون لصدف الأقدار على هذه الحمم التى ما زالت حارة ؟ من أين لهم هذا الخلود وأمامهم رمال المستقبل وثلوجه تهددهم وتنتظرهم ؟ وما حضاراتهم إلا زينات هشة ، يمحوها بركان أو بحر جديد أو سافياء من الرمال .

وتبدو هذه المدينة مستقرة على أرض حقيقية يخالها المرء عميقة التربة . وينسى الانسان أن الحياة هنا ترف ، كما هى فى أى مكان آخر ، وأنه لا وجود لأرض عميقة تحت أقدام البشر . وإنى لأعرف غديراً ، على مدى عشرة كيلو مترات من بونتا أرناس ، يبين لنا هذه الحقيقة . فذلك الغدير تحيط به شجيرات ضعيفة وبيوت منخفضة ، غدير متواضع يحاكى بركة فى فناء

مزرعة ، ولكنه يخضع لظاهرتى المد والجزر ، ويواصل تنفسه البطىء بين تلك الأشياء الهادئة والشجيرات والأطفال الذين يلعبون ، يواصل تنفسه ، إذ هو يخضع لقوانين أخرى . فتحت سطحه الأملس وتحت طبقة الثلج الرقيقة التى تغطيه أحياناً ، وتحت المركب الوحيد البالى الذى يسرى عليه ، تحت هذا كله ، ترى صدى لجهد القمر ، فتؤثر الهزات البحرية فى أعماق ذلك الماء الراكد ، وهكذا تجرى عمليات هضم أرضية ، عمليات هضم عجيبة ، تجرى من هناك حتى مضيق ماجلان تحت طبقة التربة المغطاة بالعشب والزهر . وهذا الغدير الذى يبلغ المائة من الأمتار عرضاً والذى يقع على عتبة مدينة يخيل للمرء فيها أنه فى بيته ، هذا الغدير المستقر على أرض البشر ، ينبض لوجيب البحر .

٣

إننا سكان كوكب سيار . وبفضل الطائرة يرينا هذا الكوكب أصله : فعلاقة القمر بغدير صغير تكشف لنا عن قرابة خفية . ولقد عرفت قرابات أخرى .

على حافة الصحراء بين رأس جوبى وسيزنروس ، يطير المرء

فوق هضبات مخروطية يتراوح عرضها بين بضع مئات من الخطوات وثلاثين كيلو متراً ، ولكن ارتفاعها ثابت . وهو يبلغ ثلثمائة من الأمتار ، وما عدا هذا التساوى فى الارتفاع ، فإن لونها واحد ونوع تربتها واحد وبروزها متشابه . وإذا رأيت عمُد هيكل بارزة بمفردها من الرمال دلّك ذلك على أن سقفها قد تهدم ، وهكذا كانت هذه الهضبات الفريدة شاهداً على أن هضبة واسعة كانت تصل بينها فى سالف الأيام .

وفى السنوات الأولى لخط الدار البيضاء — دكار ، كانت الآلات سريعة العطب ، ولذلك كثيراً ما كنا نضطر ، بسبب تعطل المحرك أو البحث عن زملاء تائهين ، إلى الهبوط وسط الأراضى الثائرة . والرمل خادع ، تظنه ثابتاً تحت قدمك ، فإذا بك تغوص فيه . أما عن الملاحات القديمة فيخيل إليك أنها صلبة وتسمع رنين أقدامك عليها ولكنها تنهار أحياناً تحت ثقل عجلات الطائرة ، وعندئذ تنقشع طبقة الملح عن بركة سوداء نتنة ، ولهذا كنا نختار الهبوط على أسطح الهضبات الملساء كلما سمحت بذلك الظروف ؛ إذ لم يكن تحت تلك الأسطح أى خطر .

ويرجع هذا الأمان إلى وجود رمل صلب ذى حبيبات ثقيلة

نشأ من تجمع أصداف صغيرة دقيقة ، لم تمسسها يد ، على سطح الهضبة ، ولكنها تتفتت وتتجمع كلما نزلنا على طول السفح . حتى إذا أتينا القاعدة ، وهى أقدم مستودع ، رأيناها تكوّن حجراً جيرياً نقياً .

ولقد حدث أثناء أسر رجال القبائل لزميلينا رين وسير ، أن هبطتُ على إحدى تلك الهضاب الأمينة لأُنزل رسولا من رجال القبائل ، وبحثت معه قبل مفارقته عن طريق للوصول إلى حضيض الهضبة ، ولكن جميع الحواف كانت عمودية وكان التخلص من ذلك المكان محالا .

ورغم هذا ، فقبل أن أعاود الطيران لأبحث عن مكان آخر ، بقيت هناك . وكنت أستشعر فرحا صبيانياً فى أن أعلِّم بقدمى أرضاً لم يسبق لأحد أبداً ، إنساناً كان أو حيواناً ، أن ترك بها أثرا . ولم يستطع أى رجل من رجال القبائل أن يقتحم هذه القلعة الحصينة ، ولم يسبق لأى أوروبى أن اكتشف هذه الأرض المجهولة . وكنت أذرع رمالا عذراء ، كنت أول من أجرى بين يديه كتبر ثمين ، هذا الثرى من دقيق الأصداف ، كنتُ أول من عكّر صفو هذا السلام . وعلى تلك الأرض التى تحاكى شاطىء الثلج بالمناطق القطبية ، كنت كبذرة

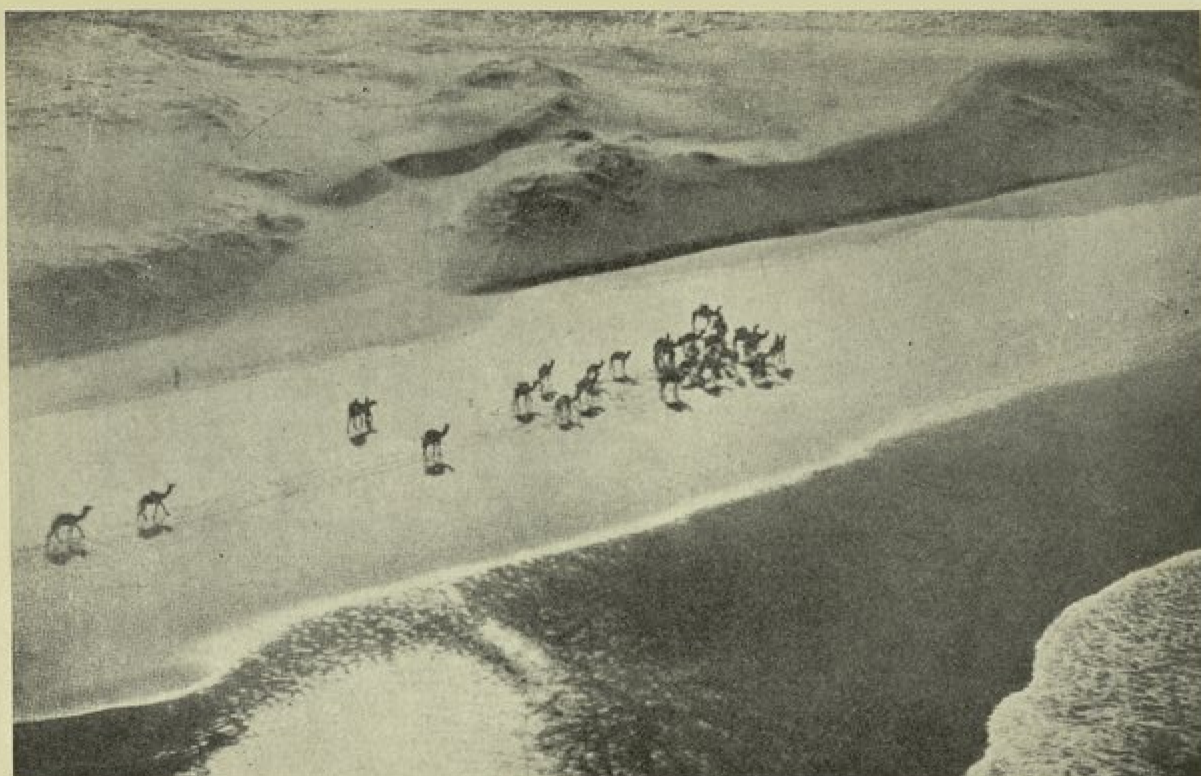
ألقتها الرياح ، كنت أول علامة للحياة أتت ذلك المكان .

وكان هناك نجم يلمع فأخذت أتملاه وأنا أفكر أن ذلك السطح الأبيض لم يُعرض إلا للشهب منذ مئات الآلاف من السنين . فراش ناصع يمتد تحت سماء صافية . وأحسست برجفة فى قلبي عند ما وجدت حجراً أسود على ذلك الفراش ، أحسست رجفة كأننى على وشك اكتشاف عظيم .

كنت قائماً على تل من الأصداف ارتفاعه ثلثمائة متر ، وهذه الكتلة العظيمة دليل قاطع على عدم وجود أى حجر ، ولربما كانت هناك أحجار راقدة فى أعماق الأرض ، أحجار نتجت عن عمليات هضم بطيئة فى باطن الأرض ، ولكن أى معجزة رفعت ذلك الحجر منها فألقت به على هذا السطح الجديد؟ والتقطتُ لقيتى والقلب واجب ، وكان حجراً صلباً أسود فى حجم قبضة اليد وفى ثقل المعدن ، وصيغ كأنه دَمعة .

إن فراشاً ممتداً تحت شجرة تفاح لا يتلقى إلا ثمر التفاح ، وإن فراشاً ممتداً تحت الشهب لا يتلقى إلا ثرى الكواكب ، وما استطاع قط أى حجر سماوى أن يدلّ على أصله بهذا الوضوح كما فعل ذلك الحجر الأسود .

وبالطبع عند ما رفعت رأسى بدا لى أنه لا بد أن غماراً أخرى



الأرض الإفريقية : قافلة من قطاع الطرق حيث يلتقي البر بالبحر

قد سقطت من تلك الدوحة السماوية . وقد أجدها فى نفس المكان الذى هبطت عليه إذ لم يطرأ عليها شىء يحركها منذ مئات الآلاف من السنين ولأنها لم تكن لتختلط بأى مادة أخرى . وقمتُ فى الحال فى رحلة استكشافية لأتحقق من فرضى .

وقد ثبت افتراضى ، وجمعت لقياتى بمعدّل حجر فى كل هكتار وكانت كلها كقطع من حمم بركانى ولها صلابة الماس الأسود . وهكذا شهدت هذا الوابل البطىء من النار متجمعاً فى موجز عجيب كأنه مقياس مطر النجوم .

٤

ولكن الأعجب من ذلك أن يوجد هناك ، على ظهر هذا الكوكب المستدير، وبين ذلك الفراش الممغطس وتلك النجوم ، عقل انسانى تنعكس فيه صورة ذلك المطر كما تبدو فى المرآة . وفى مثل ذلك المكان يبدو الحلم معجزة . وأنى لأذكر حلماً . . .

وقعت ذات مرة فى منطقة غليظة الرمال وكنت أنتظر مطلع الفجر ، وكانت الكثبان الذهبية يبهرها النور من جانب،

ويغطيها الظلام من جانب آخر ، وفى ذلك المكان الجدب كان يخيم صمت كأنه صمت الاشراك ، ويسود سلام كذلك السلام الذى يعقب انتهاء الأعمال ، ونمت فى ذلك السكون .

ولما استيقظت ، لم أر إلا صفحة السماء المعتمة لأنى كنت راقداً على الأرض ووجهى إلى السماء ، ولما لم أكن أدرى بعدُ كنه تلك الأعماق أخذتنى نوبة من الدوار ؛ إذ لم يكن بينى وبينها عماد أستند إليه أو سقيفة أستظل بها أو غصن شجرة ؛ كنت كغواص فُكت حباله وأُلقى فى غيابة البحر .

ولكنى لم أسقط قط ، وشعرت أنى مثبت بالأرض من قمة رأسى إلى أخمص قدمى ، وأحسست نوعاً من الهدوء النفسى فى أن أسلم ثقلى للأرض . وبدت لى الجاذبية حاكمة بأمرها كالحب .

وشعرت بالأرض تمسك ظهرى ، تسندنى وترفعنى وتحملنى فى ذلك الفضاء الدجوى . وأحسست أنى منطبق على هذا الكوكب بقوة كتلك التى تلصقك بعربة ساعة دورانها وهى سائرة . وتذوقت هذه الزمالة الرائعة وهذا الأمان ، وأحسست تحت جسدى ذلك السطح المتكوّر لمركبى .

وشعرت تماما أنى محمول على ظهر ذلك الفلك ، حتى أنى لم أكن لأعجب لو سمعت عند ذاك ، شكوى صاعدة من أعماق

الأرض ، شكوى المواد وهى تجاهد فى باطن الثرى ، وكأنها عويل الشراعات القديمة حين عودتها لمرافئها ، أوصراخ القوارب عند ما تتقابل . ولكن ظلّ السكون مخيّما فى باطن الأرض . ولكن ذلك الثقل بدا منسجما معتدلا متساويا إلى الأبد ، وكنت أستقر فى صميم ذلك الوطن ، كما تستقر جثث أسرى الرقيق المثقلة بالرصاص فى قاع البحار .

وتأملتُ مصيرى وأنا تائه فى الصحراء ، مهدد عاربين الرمال والنجوم ، يبعدنى عن قطبىْ حياتى صمتٌ عظيم ؛ إذ كنت أعلم أنى ربما قضيت أياما أو أسابيع أو شهوراً لأصلهما ، وذلك إذا لم تجدنى طائرة ، أو إذا لم يقتلنى رجال القبائل غداً . وهنا لم أعد أملك شيئاً فى هذه الدنيا ، فما أنا إلا شخص فان تائه بين الرمال والنجوم ، لم أعد أحس بأى لذة سوى لذة التنفس . . .

ورغم ذلك رأيت نفسى مفعما بالأحلام .

وأتتنى بلا ضجة كأنها مياه الينابيع ، ولم أدرك أول الأمر البهجة التى كانت تفيض على نفسى . فما سمعت صوتاً ولا رأيت صورة ، ولكنى شعرت بوجود شىء ، أحسست صداقة قريبة منى حتى لأكاد ألمسها . ثم فهمت وأسلمت نفسى مغمض العينين ، لسحر ذاكرتى .

فرأيت فى مكان ما ، بستانا مليئاً بأشجار الصنوبر السوداء وأشجار الزيزفون ، ورأيت منزلا عتيقاً كنت أعشقه . وما كان يهمنى أبَعُدَ ذلك المنزل أم قرب ، أم عجز عن أن يدفئنى أو يؤوينى ، إذ لم يعد الآن إلا حلما . ما كان يهمنى ذلك ، وكفانى أنه موجود ليملأ ليلى بوجوده . فلم أعد ساعتئذ ذلك الجسد الملقى على شاطىء البحر ، وإنما عرفت وجهتى ، وكنت ابن ذلك البيت ، تفعمنى ذكرى روائحه ، ويملأنى نسيم ردهاته ، وتفيض فى نفسى تلك الأصوات التى كانت تبعث فيه الحياة . وحتى نقيق الضفادع فى الغدران ، أتانى هنا لاحقاً بى . وكنت فى حاجة إلى كل هذه المعالم ، لأعرف نفسى ، ولأكتشف من أى غياب صُنع طعم هذه الصحراء ، ولأجد معنى لهذا الصمت الذى قُدّ من آلاف الصُّموت ، فى مكان يخرس فيه كل شيء حتى الضفادع .

كلا ، لم أعد أسكن بين الرمال والنجوم ، ولم أعد أتسلم مما يحيط بى من أشياء إلا رسالة باردة ، وحتى طعم الخلود الذى ظننت أولا أنه أتانى من هذا المكان ، اكتشفت الآن منبعه . وعادت إلى ذاكرتى صورة صِوانات منزلنا العظيمة وهى تنفرج عن نضيد من المفارش البيضاء كالثلج . ورأيت الخادم العجوز

تسعى من صوان لآخر وهى تفحص المفارش والملاءات فتبسطها ثم تثنيها وتعدها ، حتى إذا ما رأت بلى يهدد خلود المنزل صاحت قائلة : « يا ربى ، يالها من كارثة ! » ثم تجرى فى الحال لتفنى ناظريها على ضوء المصباح ، فى إصلاح ذلك النسيج وكأنها راهبة معبد ، تصلح ما بلى فيه ، أو نوتى يرتق الشراعات ، كانت تفنى ناظريها لتخدم شيئاً أعظم منها ، لتخدم إلهاً أو فلكاً .

آه ! إنى لمدين لك بصفحة يا آنستى . فعند ما كنتُ أعود من رحلاتى الأولى ، كنت أجدك غارقة حتى ركبتيك فى طيات المفارش البيض ، وأراك كل سنة وقد ازداد وجهك غضوناً وازداد شعرك بياضاً وأنت دائمة العمل ، تُعدّين لنومنا هذه الأغطية التى لا غضون فيها ، ولا كلاتنا هذه المفارش التى لا خيط بها ، تُعدّينها لحفلاتنا الفرحة المنيرة . وكنت أزورك فى حجرتك وأجلس أمامك وأقص عليك ما مر بى من أخطار قائلة لأحرك نفسك ، ولأفتح عينيك على الدنيا ، أو لأفسد نظرتك إليها . وكنت تقولين لى إنى لم أتغير كثيراً ، وإنى كنت دائماً ذلك الطفل الذى يمزق ثيابه فتصيحين قائلة : « يا ربى ، يالها من كارثة ! » ، يمزق ثيابه ثم يعود إلى المنزل لتضمد جراحه وتُرتق ثيابه . كلا ، كلا يا آنستى ! لم تكن عودتى هذه المرة من آخر

البستان ، ولكن من آخر الدنيا ، وكنت راجعاً ومعى روائح الوحدة النفاذة ، وعواصف الرياح وسافيات الرمال ، وأقمار المناطق الحارة الساطعة ! وكنت تقولين لى : «نعم يجرى الأولاد ويقعون وتندق عظامهم ويظنون أنهم جد أقوياء» . كلا ، كلا يا آنستى لقد رأيتُ ما هو أبعد من هذا البستان ! آه لو علمت كم هى ضئيلة هذه الظلال ! آه لو علمت أنها لا أثر لها بين الرمال والصخور والغابات والغدران . وهل تدرين أن هناك بلاداً يرفع فيها الرجال بنادقهم بمجرد رؤيتهم أناساً آخرين ؟ وهل تعلمين أن هناك صحارى ينام فيها المرء فى الليل المثلج بلا سقيفة يا آنستى وبلا سرير وبلا أغطية . . .

كنت تقولين لى : « يالك من متوحش . »

ما كنت لأمسّ إيمانها إلا بمقدار ما أؤثر فى إيمان راهبة . وكنت أرثى لمصيرها الوضيع الذى أعماها وأصمّها . . .

ولكنى أنصفتها تلك الليلة فى الصحراء ، وأنا عار بين الرمال والنجوم .

لا أدرى ما عرا بى . وهذا الثقل يربطنى بالأرض مع أن كل النجوم ممغطسة . ولكن قوة أخرى ، ثقلا آخر يعيدنى إلى

نفسي . وشعرت بوزني يجذبني نحو أشياء كثيرة ! فأحلامي أكثر واقعية من هذه الكثبان ومن هذا القمر ومن هذا الوجود . آه ! ليست معجزة المنزل أن يؤويك أو يدفئك ، أو أن تملك جدرانه . إنما معجزته هي أن يُرسب في نفوسنا شيئاً فشيئاً هذه المؤن من البهجة ، إنما معجزته ، هي أن يخلق في أعماق القلب ذلك الجبل المعتم الذي تسيل منه الأحلام كأنها مياه الينابيع . . .

صحرائي ، صحرائي ، ها انت بأجمعك قد سحرتك غازلة صوف !

٥

واحة

طالما حدثتك عن الصحراء حتى لأود أن أصف لك واحة قبل أن أعاود الكلام عن البيداء . وتلك التى تعاودنى صورتها ليست من الواحات التائهة فى جوف الصحراء . وللطائرة معجزة أخرى فهى تلقى بك مباشرة فى صميم السر الغامض . تكون فى الطائرة كعالم الحياة ، تدرس من وراء نافذتك قرية النمل الانسانية وتفحص هذه المدائن المستقرة بين السهول وسط الطرق التى تتفرع كالنجوم وتغذى البلاد برحيق الحقول كأنها الشرايين . وبينما أنت كذلك فى طائرتك ، إذا بإبرة مقياس ترتجف وسرعان ما تمسى هذه الباقة عالما ، وسرعان ما تجد نفسك سجين العشب ، فى بستان وسنان .

ليست المسافة مقياس النوى . فجدار حديقة قد يحوى من الأسرار أكثر مما يحويه سور الصين . وقد يحمى الصمت نفس فتاة صغيرة أكثر مما تحمى الرمال الكثيفة إحدى الواحات .

وسأقص قصة هبوط قصير فى أحد بلاد العالم . كان ذلك بالقرب من كونكورديا فى الأرجنتين . ولكن قد يحدث ما رأيته هناك فى أى مكان آخر ، فالأسرار منتشرة فى كل بقاع الدنيا .

هبطت فى حقل ، وما كنت أدرى أنى سأحيا لحظات كأنها من أساطير الجان . وركبت سيارة فورد قديمة لم يكن بها ما يميزها عن غيرها ، ونزلت بمنزل هادىء عادى .

— سنؤويك الليلة . . .

وعند منعطف الطريق بدت فى ضوء القمر باقة من الأشجار وخلفها ذلك البيت ، وياله من بيت عجيب ! بيت منخفض ضخم كأنه حصن . بيت أساطير ، ما تكاد ما تتخطى عتبته حتى تجد منزلا كأنه الصومعة فى هدوئه وأمنه .

وما كدت أنفذ فيه حتى طلعت علىَّ فتاتان ، وحدَّقتا فىَّ بجد كقاضيين يقفان على عتبة عالم حرام . وزمّت صغراهما شفتيها وضربت الأرض بعصا خضراء . وعند ما قدَّمت لهما سلمتا

عليّ دون كلمة ، وعليهما مسحة من تحد عجيب ، ثم اختفتا .

سحرنى ذلك وسرنى . وحدث فى صمت خفيف كأنه الكلمة الأولى فى سر مهموس .

ولم يعلق والدهما على ذلك إلا بقوله :

— إنهما متوحشتان .

ودخلنا .

كنت أحب فى باراجواى ذلك العشب الساخر ، الذى ينبت بين أحجار الأرض فى العاصمة ، ذلك العشب الذى يأتى كرسول من قِبَل الغابة الغائبة الموجودة ، حتى يرى إذا كان الوقت لم يحن بعد ليقلب كل هذه الأحجار وليجعل عاليها سافلها ! كنت أحب ذلك النوع من البلى الذى لا يدل إلا على ثروة عظيمة . ولكنى سُحرت فى ذلك المنزل .

فقد كان كل شئ باليا بلى عجيباً رائعاً ، كشجرة عتيقة عدا عليها الزمن فشققها وغطتها الطحالب الخضراء ، أو كأريكة خشبية جلس عليها العشاق منذ عشرات الأجيال . كان كساء الجدران الخشبى مستهلكا ، والنوافذ متآكلة وأرجل المقاعد مقوسة . ولم يكن القوم ليصلحوا شيئاً من ذلك ولكنهم كانوا ينظفون كل شئ بحماس . وكل شئ لامع نظيف مجلو .

وكان مظهر حجرة الاستقبال بالغ التعقيد كوجه عجوز غضنته السنون . وأعجبني كل شيء : الجدران المهلهلة والسقف الممزق وبالأخص خشب الأرض المهشم المرتج كأنه معبر معلق في الهواء ، ولكن كل شيء لامع مطلي مجلو . بيت عجيب لا تلمح فيه أي إهمال أو أي تغاض وإنما تحس فيه الاحترام العظيم . وكان كل عام يضيف شيئاً إلى سحره وإلى تعقد سمائه وإلى حرارة جوه الودود ، كما كان يزيد من مخاطر الرحلة التي لا بد منها للمرور من حجرة الاستقبال إلى قاعة الطعام .

كان يقال لي : « احترس ! »

فهذا شق في الأرض قد أقع فيه فيتحطم ساقاي . لم يكن أحد مسؤولا عن ذلك الشق فهو من صنع الزمن . كانوا أرفع من ان يبدوا عذراً . فلم يقولوا : « نستطيع سد هذه الثقوب فنحن أغنياء . . . » كلا ولم يقولوا لي ، ولو أن ذلك كان حقا ، « إننا نستأجر هذا المنزل من البلدية لمدة ثلاثين سنة ، وعليها هي أن تصلح . . . » لم يقولوا لي ذلك وكانوا يحتقرون إبداء الاعتذار أو إيضاح الأمر . وأقصى ما كانوا يفعلونه هو أن يقولوا :

— لقد بلي هذا الشيء نوعا ما .

وكانوا يتكلمون بلهجة مرحة ، فيحس المرء أن ذلك لايحزنهم . تصور فريقاً من البنائين والنجارين والنقاشين ، يعملون آلاتهم الجاحدة فى هذا الماضى الحافل ، ويخلقون من هذا البيت ، منزلا جديداً بلا أسرار ولا خفايا ولا نخاخ . أتتخيل ذلك المنزل الجديد ؟

لم يكن غريباً بعد ذلك أن تختفى الفتاتان فى هذا البيت المسحور . وكيف يكون حال المخازن ياترى إذا كانت حجرة الاستقبال على هذه الصورة ؟ ففى قماطرها أكوام من الرسائل الصفراء وصكوك من مخلفات أجداد الأجداد . وهناك مفاتيح أكثر من الأقفال وليس بينها ما يتفق مع أى قفل . مفاتيح لا جدوى منها ، تحير العقل وتجعل المرء يحلم بمخابئ تحت الأرض وخزائن مدفونة فى جوف الثرى ونقود ذهبية .

ودعينا إلى المائدة . وكنت أنشق من حجرة لأخرى تلك الرائحة المنتشرة كالبخور فى كل مكان ، تلك الرائحة التى يشمها المرء فى المكاتب القديمة ، إنها تساوى أريج الدنيا بأجمعه وكم كنت أحب تلك المصابيح التى تحمل من حجرة لأخرى كما كان يحدث أيام طفولتى البعيدة . وكانت المصابيح ترسم على الجدران ظلالا عجيبة متحركة وباقات من الضياء ومن الظلال .

وما تكاد المصابيح تستقر فى مكان حتى تجمد مناطق الضياء وتحيط بها بحار الظلام هناك ، حيث تسمع شقشقة الأخشاب .

ثم عادت الفتاتان فى سر وصمت كما سبق أن اختفتا . وجلستا إلى المائدة وعلى وجهيهما علامات الجد . لقد أطعمتا الكلاب والطيور ، وفتحتا النوافذ لليل الصافى وتذوقتا فى نسيم المساء عبير النبت . وهما الآن تبسطان منشفتيهما وترقبانني باحتياط من طرف عيونهما . وتتساءلان إذا كانتا تستطيعان ، أم لا ، أن تضعانى فى صف حيواناتهما الأليفة . فهما تملكان حيوانين من الزواحف وقردا ونحلا ، وكلها تعيش معاً فى أحسن وئام ، تعيش فى فردوس أرضى جديد . وكانتا تسيطران على كل الحيوانات . تسحرانها بأيديهما الدقيقة ، وتطعمانها وتسقيانها وتقصان عليها قصصا تنصت لها جميعا .

وتوقعت طبعا من فتاتين لهما هذه الحياة ، أن تستخدما كل عقلهما الناقد ودهائهما فى إصدار حكم سريع سرى ونهائى على الرجل الجالس أمامهما . وعادت إلىّ ذكرى من أيام طفولتى إذ كانت أخواتى يعطين درجات لمن يشرفن مائدتنا للمرة الأولى ، ثما يكاد الحديث يخفت حتى تسمع فى الصمت صوتا يصيح :

— إحدى عشرة .

وما كان أحد يفهم ذلك ويتذوق سحره إلا أنا وأخواتى .

ولذلك كنت مرتبكا لسابق تجربتى وزاد من ضيق إحساسى أن قاضيَّ على درجة عظيمة من المهارة واليقظة . قاضيان يعرفان كيف يميزان بين الحيوانات المخادعة والحيوانات الساذجة ، ويعرفان من سير ثعلبهما إذا كان ذى مزاج يسمح بالاقتراب منه أم لا ، قاضيان لهما مثل تلك الدراية العميقة بخلجات النفوس .

وكنت أحب عيونهما الحادة ونفوسهما الفتية . ولكن كم تمنيت أن يغيرا تلك اللعبة . وخوفا من تلك « الإحدى عشرة » ، كنت أقدم لهما الملح فى صمت وأسكب لهما النبيذ ، ولكن عبثا فقد بقى مظهر الجد العذب مرتسما على وجهيهما ، طابع القضاة الذين لا تشترى ذمتهم .

وحتى التملق لم يكن مجديا معهما فهما تجهلان الغرور ، ولكنهما تعرفان الشمم الجميل وتعتقدان فى نفسيهما من الفضل أكثر مما كنت أجرؤ على التفوه به . ولم أفكر حتى فى الاستفادة من مهنتى ؛ إذ كان يمكننى الصعود حتى أعلى شجرة الساج لأطمئن على أصدقائهما من الطير ولأحييها !

وبقيت الفتاتان صامتتين ترقبانني وأنا أتناول الطعـام ، وكثيراً ما التقت نظرتى بنظرتيهما المختلستين حتى أنى توقفت عن الـكلام . وأطبق السكون ، ثم سمعت صفيراً خفيفاً على خشب الأرض ثم خفيفاً تحت المائدة ثم صمت كل شئ . ورفعت عينى القلقتين المتسائلتين فاذا بصغرى الفتاتين وقد سرها امتحانى من غير شك ، تستخدم آخر محكٍّ لديها فتقول لى وهى تقضم بأسنانها الحادة الفتية قطعة من الخبز ، تقول لى بسذاجة كانت تنتظر أن تروعنى وتدهشنى :

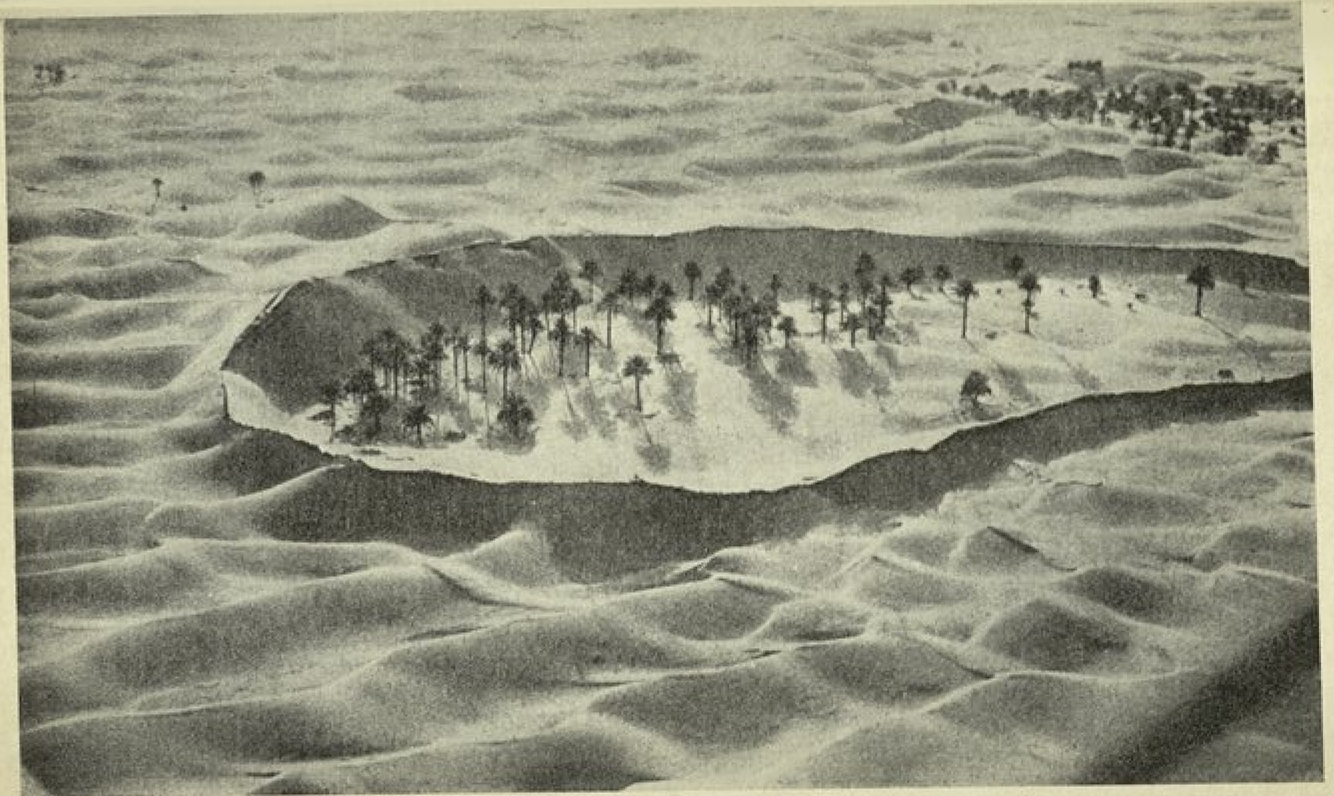
— إنها الحيّات .

وصمتت مقتصرة على ذلك الإيضاح كما لو كان ذلك كافيا لافهام شخص متوسط الذكاء . ثم ألقت علىّ أختها نظرة خاطفة كأنها البرق لتحكم على أول خلجة لى . وخفضت كلتاهما وجهها السنى الرائع وواصلتا الطعام .

— آه ! . . . إنها الحيّات . . .

ومرت تلك الـكلمات دون أن أفهمها . كان ممكنا أن تسرى الحيات بين قدمى وأن تمس إحدى ساق . . .

ولـكن لحسن حظى تبسمت عندئذ . وتبسمت دون تصنع ولو أنى تصنعت شيئاً لشعرتا به . تبسمت لأنى كنت مرحا ،



الصحراء : تختفى الواحة — الخصيبة فى سالف الأيام — شيئا فشيئا تحت الرمال

ولأن ذلك المنزل كان يضاعف سروری من لحظة لأخرى ، ولأنی كنت أريد أن أعرف شيئاً أكثر عن تلك الحيات . وسارعت كبراهما لتساعدنی فقالت :

— جحرها تحت المائدة .

ثم أضافت أختها :

— إنها تعود حوالی العاشرة مساء ، أما فی النهار فإنها تخرج للصيد .

وكنت بدوری أختلس النظرات لهاتين الفتاتين فأری رقتهما وضحكتهما الصامتة خلف تلك الطلعة الهادئة . وملأنی الاعجاب بتلك العظمة والسيادة التی كانت تفيض منهما . . .

وهأنذا اليوم أحلم . وقد أضحی كل ذلك نائيا . وأين الآن هاتان الجنيتان ؟ لقد تزوجتا من غير شك . ولـكن هل تغيرتا ؟ إنه من الخطورة بمكان أن تصبح الفتاة امرأة . وماذا تصنعان فی بيت جديد ؟ وكيف صارت علاقتهما مع حشائش البرية ومع الأفاعی ؟ لقد كانتا ممتزجتين بشیء من الـكون . ولـكن ذات يوم استيقظت المرأة المستقرة بين جنبی الفتاة : وفكرت عندئذ أن تعطی تسع عشرة درجة لأحد الرجال . وأصبحت تلك الدرجة تؤثر فی صميم قلبها . وعندئذ تقدم غرٌّ . ولأول مرة انخدعت

تلك العيون الحادة فأضفت على هذا الرجل ألواناً جميلة . وإذا كان الغر ينظم القول ، ظنته الفتاة شاعراً ، واعتقدت أنه يفهم ما تحبه وأنه يحب الزواحف مثلها . وعندئذ وهبت له قلبها وهو غابة برية ، مع أن ذلك الرجل لا يحب إلا البساتين المعتنى بها . واستصحب ذلك الغر الأميرةَ إلى العبودية .

٦

فى الصحراء

١

كانت تلك النعم حراما علينا عندما كنا نطير أسابيع وشهوراً وسنين فى الخط الصحراوى ونحن سجناء الرمال نسعى من حصن إلى آخر دون أن نعود. ولم يكن بتلك البيداء واحات شبيهة ، فأين الحدائق والفتيات ، يالها من أساطير ! نعم ، هناك بعيداً جداً ، نستطيع أن نعاود الحياة عند ما ينتهى عملنا ، وهناك تنتظرنا آلاف الفتيات . إنهن هناك ، بين حيواناتهن الزاحفة وبين كتبهن ينشئن على مهل نفوسا نضرة . نعم إنهن يصبحن جميلات . . .

ولكنى أعرف الوحدة . أذاقتنى طعمها ثلاث سنين فى الصحراء حيث لا يتزعج المرء من شبابه الذى يفنى وسط الصخور ، إذ يبدو لمن يعيش فى الصحراء ، أنها الدنيا بأجمعها ، الدنيا البعيدة عنه ، هى التى تفنى . فهناك قد أخرج الشجر ثمره ، وأنضجت الحقول قمحها ، وأمست النساء رائعات . ولكن الموسم يتقدم ، فلا بد من المبادرة بالعودة . ولكن الموسم يتقدم ، والمرء سجين هناك بعيداً ... وتسيل نعم الأرض بين الأصابع كأنها رمل الكثيب الناعم .

ولا يستشعر الناس عادة سير الزمن فهم يعيشون فى سلام وقتى . ولكنا كنا نحسه عند ما نصل المهبط وكانت تثقلنا الرياح الدائمة . كنا كالمسافر فى قطار سريع تملؤه ضجة العجلات المرتطمة فى الليل ، ويحس قطرات الضوء المنقذفة خلال النافذة وسريان الأرياف وقراها وبيوتها المسحورة ، ولكنه لا يستطيع أن يحتفظ بشىء منها لأنه فى رحلة . ونحن أيضاً ، تحركنا حمى خفيفة وما زالت آذاننا تصفر من ضجة الطيران ونشعر أننا ما برحنا سائرين فى الرحلة رغم هدوء محطة الطيران . وكنا نحس نحن أيضاً أن دقات قلوبنا تحملنا نحو مستقبل مجهول خلال هذه الرياح .

ويزيد العصيان في وحشة الصحراء . فكانت ليالي رأس جوبي يقطعها كل ربع ساعة صوت كأنه دقة ساعة الحائط ، ذلك هو صوت الحراس وهم يتنادون بصيحة منتظمة . وهكذا كان حصن رأس جوبي يحمي نفسه وسط القبائل العاصية وضد أخطار لم يرها أحـد . وكنا نحن ركاب هذا الفلك الأعمى ننصت لذلك النداء وهو يتضخم كلما اقترب منا .

ورغم ذلك فقد عشقنا الصحراء .

وإذا كانت الصحراء تبدو لأول وهلة وليس بها إلا الفضاء والسكون ، فما ذلك إلا لأنها لا تبدي حسنها إلا لمن يطيلون الاقامة بها . وإن قرية بسيطة في بلادنا لتبدو مجهولة لمن لا ينعم النظر فيها. فاذا لم نطلّق الدنيا من أجلها ، وإذا لم نعتنق تقاليدها ونأخذ بعاداتها ونفهم ما فيها من منافسات ، فإننا نجهل كل شئ عنها . ومثل آخر ، مثل ذلك الرجل المعتكف في صومعته ، يعيش وفق قواعد نجهلها نحن ، ذلك الرجل يبدو في وحدة شاهقة وعلى بعد سحيق لن تستطيع أي طائرة أن توصلنا إليه . فَلِمَ نذهب لزيارة صومعته ؟ إنها خالية بالنسبة لنا . إن عالم الانسان عالم داخلي خفي . وهكذا الصحراء ، لم تُصنع من الرمال ولا من

الطوارق ولا من رجال القبائل حتى ولو كانوا مسلحين بالبنادق ...

فاذا استشعرت العطش يوما رأيت عند ذاك أن تلك البئر، التى سبق أن عرفتها، تفيض على الكون سناء. وقد تسحر امرأة بعيدة خفية بيتاً بأجمعه. وهكذا تكون البئر كالحب ذات أثر بعيد ناء

وإذا رأيتَ الرمال، بدت لك لأول نظرة جدباء جرداء، حتى إذا أتى يوم خشيت فيه اقتراب القبائل الثائرة فإنك تستطيع عندئذ قراءة طيات مئزرها العظيم، ذلك لأن الغارة تغير وجه الرمال.

لقد قبلنا قواعد اللعبة وستشكلنا اللعبة على صورتها. ولن تظهر الصحراء خارجنا وإنما تبدو فى نفوسنا. وإذا أردتَ أن تصل لها فلا تزر واحة ولكن اضرب فى فيافيها باحثاً عن ينبوع تعبده.

٢

ولقد عرفت طعم الصحراء من أول رحلة لى؛ إذ سقطنا أنا وريجيل وجيوميه قرب حصن نواتشوت. وكان ذلك المرقب منعزلا عن الحياة كأنه جزيرة صغيرة تائهة فى البحار. وكان

يعيش فيه جاويش عجوز مع خمسة عشر سنغاليا. ورحب بنا كأننا رسل من السماء. وقال لنا وهو يبكى :

— إنها لنعمة أن أكلمكم. فأنتم أول من أرى من الناس منذ ستة أشهر. وأحيانا يأتى الضابط الملازم وأحيانا اليوزباشى وفى آخر مرة كان اليوزباشى . . .

كنا ما زلنا فى دهشة وروعة. فعلى بعد ساعتين من دكار، حيث كان يُعد لنا الطعام، انفجرت آلات الحركة وتغير مصيرنا. وظهرنا فجأة لهذا الجاويش الباكى كأننا نفر من الجان.

— إشربوا، إنى لسعيد أن أقدم لكم نبيذاً ! تصوروا أنه لم يكن لدىَّ نبيذ عند مرور اليوزباشى.

لقد قصصتُ ذلك فى أحد كتبى ولكنه لم يكن قصة. كان حقيقة. قال لنا :

— فى المرة الأخيرة، لم أستطع أن أقرع الكأس. ولقد خجلت من ذلك لدرجة أنى طلبت نقلى.

يقرع الكأس ! يقرع الكأس مع ذلك الذى يقفز من أعلى هجينه وهو يتصبب عرقا ! كانت تلك اللحظة منتظرة منذ ستة أشهر وقد عاشوا ليروها. ومنذ شهر كانت الأسلحة تلمع والمرقب يُنظف من أسفله إلى أعلاه. ومنذ بضعة أيام أحسوا

اقتراب اليوم المبارك فبدأوا يرقبون الأفق من سطح البناء وهم لا يكلون ؛ حتى يكشفوا ذلك الغبار الذى سيتشح به جند عطار الراكب . . .

ولكن النبيذ قد نفد ، ولن يستطاع إقامة الاحتفال ولن تقرع الكؤوس . وحينئذ يكتشف الجاويش أنه قد فقد شرفه . . .

— كم أود أن يحضر سريعاً . إنى فى انتظاره . . .

— وأين هو أيها الجاويش ؟

وأجاب الجاويش وهو يشير إلى الرمال قائلا :

— لا أحد يدرى ، أن اليوزباشى فى كل مكان !

وكانت حقيقية أيضاً تلك الليلة التى قضيناها على سقف الحصن ونحن نتكلم عن النجوم ولم يكن هناك شئ نرقبه سواها . كانت كاملة بقضها وقضيضها ، نراها كما لو كنا فى الطائرة ، ولكنها كانت ثابتة .

فى الطائرة ، عند ما يكون الليل فاتناً ، يسلم الطيار نفسه للسير ولا يعى قائد الطائرة ، وتنحنى الطائرة شيئاً فشيئاً ذات الشمال ويظن أنها ما زالت أفقية حتى يكتشف قرية تحت الجناح الأيمن . ولكن ليس فى الصحراء قرى . إذن هى قوارب صيد .

ولكن لا قوارب صيد فى قلب الصحراء . فما هذا إذن ؟ عندئذ يتبسم الطيار لخطئه ، ويقوم الطائرة برفق . وحينئذ ترجع القرية إلى مكانها . نعم إنها قرية ولكنها قرية من النجوم . ولكن من أعلى هذا الحصن لا يُرى شئ إلا الصحراء المتجمدة وعليها أمواج الرمال ، أمواج بلا حركة . والنجوم ثابتة . وكلمنا الجاويش عنها فقال :

— إنى أعرف الجهات جيداً . فاذا أنت اتجهت نحو هذا النجم وصلت تونس رأساً !

— وهل أنت من تونس ؟

— كلا ، وإنما ابنة عمى من هناك .

ثم خيم علينا صمت طويل ، ولكن الجاويش لم يستطع إخفاء شئ عنا فعاد يقول :

— سأذهب إلى تونس يوماً ما .

سيذهب إلى تونس ولكنه سيتبع طريقاً آخر غير طريق هذا النجم ، اللهم إلا إذا نفد الماء وهو فى رحلته فأسلمه ذلك إلى شاعرية الجفون ، وعندئذ يختلط النجم وبنت العم وتونس ، وعندئذ يبدأ ذلك السير الملهم الذى يحسبه الجاحدون مؤلماً .

— طلبت ذات مرة من اليوزباشي إذناً بالذهاب إلى تونس لأرى ابنة عمى ، فأجابنى . . .

— ماذا أجابك ؟

— أجابنى : « العـالم ملئ ببنات العم » ، ولما كانت دكار أقرب من تونس أرسلنى إلى هناك .

— وهل كانت جميلة ابنة عمك ؟

— ابنة العم التونسية ؟ نعم بالتأكيد كانت شقراء .

— كلا . نقصد ابنة العم التى فى دكار .

أيها الجاويش كم وددنا أن نعانقك لأجابتك الجريئة المختلطة بالغضب :

— لقد كانت زنجية . . .

ما الصحراء بالنسبة لك أيها الجاويش ؟ لقد كانت قوة خارقة دائمة السير نحوك . لقد كانت أيضاً ما تحسـه من جمال ابنة عمك على مدى خمسة آلاف كيلومتر فى الرمال .

وما الصحراء بالنسبة لنا ؟ إنها ما يُولد فى أنفسنا . إنها ما نتعلمه عن أنفسنا . ونحن أيضا فى تلك الليلة كنّـا مثلك ، نعشق ابنة عم ونحب ضابطا . . .

٣

تقع ميناء إتيين على تخوم أراض ثائرة ، وهي لاتعتبر مدينة ؛ إذ لاتحوي إلا حصنا ومظلة وكوخاً خشبيا ليُؤوي الطيارين . وتحيط بها الصحراء الجدباء من كل مكان حتى إنها لاتُقهر رغم ندرة مواردها الحربية . فلابد للهجوم عليها من اختراق منطقة من الرمال ومن اللهيب ، ولذلك لاتصلها القوافل المعادية إلا بعد فناء قُوّتها ونضوب مائها . ولكن يذكر الناس أن قافلة معادية قد سارت ذات يوم متجهة نحو ميناء إتيين . وفي كل مرة يزورنا فيها الضابط ، ليتناول كوب شاي عندنا ، يقص أسطورة تلك القافلة ويرسم سيرها على الخرائط وكأنه يحكي أسطورة أميرة جميلة . ولكن ما من قافلة معادية تصلنا ؛ فإن الرمال تستنزفها كما تستنزف الماء ولذا أطلقنا عليها اسم الغزوة الخيالية . وترانا نُبقي البنادق والخراطيش ، التي توزعها الحكومة علينا في المساء ، في صناديقها تحت أسرتنا . وليس لنا عدوّ نحاربه سوى الصمت . ويحمينا ، قبل كل شيء ، فقرُنا وعوزُنا . وترى لوكاس رئيس الميناء الجوي مديراً حاكيه ليل

نهار ، فنسمع فى ذلك البعد السحيق عن الحياة ، لغة كدنا أن ننساها ، ويثير فينا ذلك حزنا لا ندرى له طعما ولا سببا ، حزنا يحاكى العطش .

فى تلك الليلة تعشينا فى الحصن ، وأرانا الضابط المحافظ ما يسميه حديقته ، وهى ثلاث ورقات خضراء تنمو فى صندوق ملىء بتربة أرسلت له من فرنسا بعد أن قطعت أربعة آلاف كيلومتر . ولمسنا بأصابعنا على تلك الأوراق الخضراء كما لو كانت جواهر . تلك هى الحديقة التى يسميها الضابط كذلك والتى تنقل إلى الكهف فى أسفل الحصن كلما هبت الرياح التى تجفف كل شىء .

وكنا نسكن على بعد كيلومتر واحد من الحصن ، وعدنا إلى مأوانا تحت ضياء القمر ، بعد العشاء . وكان الرمل ورديا فى نور القمر . وأحسسنا بفقرنا وعرينا ، ولكن ما قيمة ذلك ؟ إن الرمل وردى ، وصوت الحارس يرن فيعيد إلى العالم ما يثير الرحمة . والصحراء كلها ترتجف من ظلالنا وتتوجه إلينا متسائلة ، ذلك لأن قافلة معادية كانت تسير .

وتجمعت فى صوت الحارس كل أصوات الصحراء . ولم تعد

الصحراء بيتا خاويا على عروشه وإنما أمست بيتا مأهولا . لقد سحرت هذه القافلة المعادية الليل والبيداء .

ولربما اعتقد الإنسان أنه فى أمان ، فإذا بالمرض والحوادث والقوافل المعادية والأخطار المهددة تسير نحوه . فالمرء على هذه الأرض هدف للسهام ولا يدرى أين الرماة . . . وها هو ذا الحارس السنغالى يذكرنا بذلك .

وصحنا مجيبين الحارس بقوله : «فرنسيون» ، ومررنا أمام ذلك الملاك الأسود وعادت إلينا أنفاسنا . فأى نبل أثاره فينا ذلك الخطر ... فمهما كان بعيداً ، ومهما كان بطيئاً ، ومهما عاقته الرمال ، فإنه قد غير دنيانا وأعاد إلى هذه الصحراء عظمتها . وتلك القافلة العدوة السائرة فى مكان ما والتى لن تصل أبدا ، تلك القافلة قد أضفت على الصحراء عظمتها وقداستها .

كانت الساعة الحادية عشرة مساء وعاد لوكاس من محطة اللاسلكى فأخبرنى أن طائرة داكار ستصل عند منتصف الليل . وكل شىء على مايرام . وعلى هذا فسيمكن الانتهاء من نقل البريد إلى طائرتى بعد منتصف الليل بعشرة دقائق ، وعندئذ سأطير

متجها شمالا . ووقفت أحلق ذقنى أمام مرآة مشقوقة . وكانت المنشفة حول رقبتى وكنت أخرج من وقت لآخر وأتطلع إلى الرمال العارية . وكان الجو رائعاً ولكن بدأت الرياح تجمد وعدت إلى المرآة وأخذت فى التفكير . إن الرياح إذا ساءت مدة طويلة ثم سكنت هكذا فجأة فإن ذلك يفسد الجو كله أحيانا . وبدأت فى لبس ملابسى وعقدت مصابيح الانقاذ بمنطقتى وأخذت مقياس الارتفاع وأقلامى الرصاصية ، وذهبت إلى نرى الذى سيكون عامل اللاسلكى بطائرتى تلك الليلة ، فوجدته يحلق هو أيضا وسألته عن الحال فقال لى : « الحال طيبة الآن » . وتلك العملية الأولى هى أقل عمليات الطيران صعوبة . ثم سمعت طقطقة وكان ذلك صوت اصطدام فراشة بمصباحى . وهز ذلك الصوت أوتار قلبى دون أن أدرى السبب .

وخرجت مرة أخرى ونظرت فإذا بكل شئ صاف رائق . وكان الصمت يسود الصحراء كما يخيم على منزل هادئ منظم . ولكن فراشة خضراء وجرادتين صدمت مصباحى فشعرت مرة أخرى بشعور غامض ، قد يكون فرحاً وقد يكون خوفا ، ولكنه على كل حال إحساس آت من قرارة نفسى ، إحساس ما زال غامضاً ولكنه يوشك أن يبين . كان هناك شخص يكلمنى من بعيد .

فهل ذلك هو صوت الغريزة؟ وخرجت مرة أخرى فوجدت الرياح ساكنة تماماً وما زال الجو منعشا . ولكن كنت قد تلقيت إنذاراً . وتوقعت شيئاً وأظن أنى فهمت ما سيحدث . فهل كنت على صواب؟ لم تعطنى السماء ولا الرمال أية إشارة ولكن بعض الفراش كلمنى .

وارتقيت كثيباً وجلست ووجهى للمشرق . وقلت لنفسى : « لو كنت على صواب فلن تتأخر الرياح » . إذ عن أى شىء كان يبحث ذلك الفراش هنا على مدى مئات الكيلومترات من الواحات الداخلية؟ إن ألفاظا ضئيلة تحملها الأمواج للشواطىء تدل على العاصفة الهوجاء التى تجتاح البحر . وهكذا دلتنى تلك الحشرات أن عاصفة رملية كانت آتية من الشرق بعد أن أجدبت حقول النخيل البعيدة من فراشها الأخضر وقد مسّنى زَبَدها فعلا . وسارت ريح الشرق تحدوها العظمة لأن فيها امتحاناً للنفوس ، ويحدوها الجلال لأن فيها تهديداً للناس ولأنها تحوى عاصفة هوجاء . ولم يكد تنهدها يصلنى حتى أحسست به ، فأنا الشاطىء القصى الذى تمسه الأمواج . ولم يحدث أى شىء على بعد عشرين متراً خلفى إذ كان كل شىء ساكنا . وشملنى لهيب الريح مرة واحدة ولكنى كنت أعرف أن الصحراء

ستعاود التنفس وسترسل عما قريب تنهداً ثانيا وكنت واثقاً أنه لن تمر ثلاث دقائق حتى يضطرب خرطوم الهواء الذى يعلو مظلتنا ولن تمر عشرة دقائق حتى تمتلىء السماء بالرمال . وسنطير عما قليل فى هذا الجحيم ، فى لهيب الصحراء العائد .

ولـكن ليس ذلك ما حرك نفسى . إن ما أفعمنى مرحا ، هو أنى كدت أفهم لغة خفية ، هو أنى استطعت تتبع الأثر كرجل بدائى يحس المستقبل فى نفسه بما يبدو فيها من خلجات ، هو أنى قرأت ذلك الغضب فى جناحى فراشة .

٤

كنا هناك على مقربة من رجال القبائل العصاة . وكانوا يبرزون من غيابة تلك الأراضى المحرمة التى كنا نخترقها أثناء طيراننا ، وكانوا يخاطرون أحياناً بالذهاب إلى حصون جوبى أو سيزنروس لشراء سكر أو شاى ثم يعودون إلى التحصن بأسرارهم ، وكنا نحاول أثناء مرورهم استئناس بعضهم .

وإذا كان الأمر أمر رؤساء ذوى نفوذ فإننا نحملهم أحياناً ، بموافقة إدارة الخطوط الجوية ، فى طائراتنا لنريهم الدنيا . كنا

نريد أن نطفئ جذوة كبريائهم ؛ لأن الاحتقار هو الذى كان يدفعهم إلى قتل أسراهم أكثر مما يدفعهم الكره . وعند ما كانوا يلقوننا على تخوم الحصون ، لم نكن نستحق منهم حتى السبّ ، وإنما كانوا ينعطفون ويبصقون . وتلك الكبرياء كانت نتيجة توهمهم أنهم أقوياء . وكم منهم من قال لى عند ما كان يعد جيشاً من ثلثمائة مقاتل مسلحين بالبنادق : « إنكم سعيدو الحظ فى فرنسا لبعدكم عنا مائة يوم . . . »

فكنا نتزههم . ولقد حدث أن ثلاثة منهم زاروا فرنسا المجهولة ، وكانوا من ذلك النوع الذى صحبنى بعض أفراده ذات يوم إلى السنغال ، فبكوا لما رأوا الأشجار .

وعند ما زرتهم فى مخابئهم كانوا يشهدون حفلا موسيقياً ترقص فيه نساء عاريات بين الزهور . فأولئك رجال لم يسبق لهم أن رأوا شجرة ولا نافورة ولا وردة ، رجال لا يعرفون ، إلا من القرآن ، شيئاً عن البساتين التى تجرى من تحتها الأنهار ؛ إذ هم يصورون جنتهم كذلك ، وذلك الفردوس بحوره العين يناله المؤمن إذا مات فى الصحراء برصاص كافر ، بعد ثلاثين سنة من الشقاء . وهم يظنون الآن أن الله يخدعهم ؛ لأنه لا يطلب من الفرنسيين ، وقد وهبهم كل تلك الثروات ، لا ضريبة العطش

ولا ضريبة الموت . ولهذا ترى أولئك الرؤساء القدامى يحلمون الآن وينعمون النظر ، وتراهم يذكرون الصحراء الجدباء الممتدة حول خيمهم ، تلك الصحراء التى لا تجود عليهم إلا بمسرات تافهة ، فهم الآن يرسلون أنفسهم على سجيتها للنجوى . فتسمعهم يقولون :

— إن إله الفرنسيين أكثر كرما لهم من إله البدو للبدو.

وقبل ذلك ببضعة أسابيع كانوا يتنزهون فى مقاطعة السافوا . فقادهم دليلهم أمام شلال جبلى كأنه عمود قائم دائم الزئير ، وقال لهم :

— تذوقوا .

وكان ماء حلوا . ماء ! كم من الأيام يقضيها المرء سائرا ليصل أقرب بئر فى الصحراء حتى إذا أتاها كان عليه أن يقضى ساعات طويلة ليرفع الرمال التى تملأها ليصل أخيراً لطين مختلط ببول الجمال !... فى رأس جوبى وفى سيزنروس وفى ميناء أتيين ، لا يسأل أطفال اليهود نقوداً ، وإنما يحملون علبة طعام فارغة . ويسألون ماء ، فتسمعهم ينادون :

— أعطنى قليلا من الماء .

إنه الماء الذى يوازى ثقله ذهبا ، إنه الماء الذى تكفى قطرة

واحدة منه لتستجرّ من الرمال شرارة خضراء ، هي شرارة العشب . وإذا نزل الغيث أرضا سعت القبائل إليها وأصابت الحياةُ الصحراء . . . وذلك الماء الشحيح الذي لم تنزل منه قطرة في ميناء أتيين منذ عشر سنوات ، ذلك الماء يزأر الآن كأن خزانا عظيما قد انفجر فأسال كل ما ادخره العالم من مياه . وقال لهم دليلهم :

— هيا بنا .

ولكنهم لم يتحركوا ، وأجابوا :

— دعنا . . .

وبقوا صامتين يتطلعون في جدّ إلى هذا السرّ العظيم وكأن على رؤوسهم الطير . فذلك الذي كان يتفجر من أحشاء الجبل إنما هو الحياة ، إنما هو دم الناس . وما يسيل في لحظة واحدة كاف ليبعث الحياة في قوافل بأكملها ، قوافل أفقدها العطشُ رشدَها فغاصت إلى الأبد في آزال المسارب والبحيرات المالحة . كان الله قد بدا لهم وما كان لبشر أن يوليه الأدبار . لقد فتح الله مستودعاته وأبدى قوته ، وبقي رجال القبائل الثلاثة جامدين لا يتحركون . وقال لهم الدليل :

— ماذا ترون أكثر من ذلك ؟ هيا بنا .

— يجب الانتظار .

— انتظار أى شى ؟

— انتظار النهاية .

كانوا يريدون أن يبقوا حتى يتعب الإله من حماقته ، فسيستغفر سريعا ؛ إذ أنه ضنين بما لديه . فرد عليهم الدليل قائلا :

— ولكن هذا الماء يسيل منذ ألف سنة ! . . .

ولم يسألوا عن الشلال فى ذلك المساء ؛ فإنه يحسن بالمرء أن يسكت أحيانا أمام بعض المعجزات . بل يحسن ألا يفكر المرء فى ذلك كثيراً وإلا فسينتهى إلى العجز عن الفهم ، وإلا فسيشك فى الله . . .

— إله الفرنسيين أترى . . .

إنى أعرفهم جيداً هؤلاء الأصدقاء المتوحشين . لقد تزعزعت عقائدهم ، وأصبحوا على وشك الخضوع . فهم يؤملون أن تموّنهم السلطات الفرنسية بالشعير ، وبأن تؤمّنهم قواتنا الصحراوية . وفى الحق لو خضعوا فسيكسبون ماديا .

ولكن ثلاثتهم من نسل المأمون أمير قبائل الطرارزة (وأظن أنى أخطئ فى هذا الاسم) .

ولقد عرفت ذلك المأمون عندما كان خاضعاً لنا ، فكان يُستقبل فى الحفلات الرسمية ، لما أداه من خدمات ، وصار غنياً بفضل الحكام الفرنسيين ، ومحترما من القبائل ، ولم يكن يبدو أن شيئا من المزايا ينقصه . ولكنه ذات ليلة قام ، دون أن تبدر منه بادرة تدل على ذلك ، فذبح الضباط الذين كانوا يصحبونه فى الصحراء ، واستولى على جمالهم وبنادقهم وعاد إلى القبائل الثائرة.

ويسمّونها خيانة تلك الثورات المفاجئة ، وذلك الهرب الذى تمتزج فيه البطولة باليأس . هَرَبُ قائد أضحى منبوذا فى الصحراء . يسمّونه خيانة ذلك المجد الذى سينطفىء عما قليل كسهم نارى ، أمام طلقات جند عطّار الراكب ، ويدهش الناس من تلك النوبات الجنونية .

ولكن قصة المأمون هى بعينها قصة الكثيرين من العرب . كان المأمون يهرم ، وعندما يهرم الانسان يُسلم نفسه للتأمل . وهكذا اكتشف ذات مساء أنه قد خان إله الاسلام ، وأنه قد دنّس يده عندما وضعها فى يد المسيحيين واتفق معهم إتفاقاً فقد به كل شىء .

وفى الحق ، ما قيمة الشعير والسلام بالنسبة له ؟ لقد كان محاربا فهبط حتى أصبح راعيا ، وها هو ذا يذكر أنه قد سكن

صحراء تكمن المخاطر فى كل طية من طياتها، ويُرسل فيها الجند الساهرون ليرقبوا الأعداء، صحراء تسمع فيها أخبار الأعداء فترتجف لها القلوب المتجمعة حول النيران الموقدة فى الليل. وها هوذا يذكر أنه تذوق شيئاً يحاكى ما يتذوقه البحار فى لجة البحر، طعما من تذوقه مرة لم يستطع نسيانه أبدا.

ذكر ذلك ثم تأمل فألفى نفسه تائها بلا مجد فى أرض عمها السلام وخلت من كل سحر وعظمة. وعندئذ فقط أضحت الصحراء صحراء حقاً.

ولربما كان يحب أولئك الضباط الذين سيقتلهم، ولكن حبه لله يأتى فى المحل الأول.

— عم مساء يامأمون.

— حفظك الله.

ثم تدثر الضباط بأغطيتهم وتمددوا على الرمل كأنهم على ظهر طوف، ووجوههم إلى السماء. وطلعت النجوم جميعاً وهى تدور ببطء، وبدت السماء كأنها ساعة عظيمة تدل على الوقت. وهاهوذا القمر ينعطف نحو الرمال، يعيده الله الحكيم إلى العدم. وعما قليل سينام هؤلاء المسيحيون بضعة دقائق، ولن ينير الدنيا

إلا النجوم. وعندئذ يكفى أن يُقتل هؤلاء المسيحيون النيام لـكى تسترد القبائل مجدها الغابر، ولـكى تعود ثانية تلك المطاردات التى تضفى، وحدها، على الرمال حياة وسناء...

وبعد ثوان سيبعث عالم جديد...

وذبح المأمون الضباط النائمين.

٥

دعانى اليوم فى چوبى كمال وأخوه معين وشربت الشاى معهم فى خيمتهم وكان معين يصعّد الطرف فىّ وهو صامت وقد أبقى خماره الأسود مرسلا على شفتيه. وكان كمال هو الذى يكلمنى فقط. وحيانى قائلا:

— خيمتى وجمالى وسباياى وعبيدى كلها رهن أمرك.

وكان معين لا تفارقنى نظراته، وانحنى على أخيه ملقياً له ببضعة كلمات ثم عاد إلى سكوته. فسألته عمّ يقول فأجابنى:

— إنه يقول: «سرق بونافوس ألف بعير من الرجيبات.»

ولم أكن أعرف اليوزباشى بونافوس ضابط هجانة عطار ولـكنى كنت قد سمعت عن أسطورته بين رجال القبائل؛ فهم

يتكلمون عنه بغضب ولكن كما يتكلمون عن قوة خارقة . فوجوده هناك قد جعل للصحراء قيمة . وها هو ذا يعود اليوم للظهور ولا أحد يدرى كيف كان ذلك . برز اليوم وراء القبائل الثائرة المغيرة المتجهة نحو الجنوب وأخذ يسرق جمالهم بالمئات ويضطرهم إلى قتاله كى ينقذوا ثرواتهم التى كانوا يحسبونها فى أمان . واليوم وقد أنقذ عطار بهذا الظهور الملائكى المفاجىء وأرسى خيمته على هضبة صخرية ، الآن وقد تم له هذا ، فسيبقى قائما هناك كأنه رهينة جديرة أن تؤخذ . وإنه ليشعّ إشعاعا يرغم القبائل أن تسير نحو سيفه .

وتطلع معين إلىّ بنظرة جامدة وواصل الكلام ، فسألت عمّ يقول فأجابنى أخوه :

— يقول : سنرحل غداً لقتال بونافوس ولدينا ثلثمائة بندقية .

لقد توقعت شيئاً عندما رأيت منذ ثلاثة أيام تلك الجمال تقاد للسقيا ، وتلك المشاورات وذلك الحماس ، وكانوا كملاحين يهيئون فلكا خفيا ، وكانت الرياح التى ستسيّره قد أخذت تهب فعلا . وبفضل بونافوس أصبحت كل خطوة إلى الجنوب خطوة مفعمة بالمجد . ولم أعد أدرى أيسيّرهم الحب أم البغض .

وإنه لرائع حقاً أن يكون للمرء عدوّ جميل كبونافوس .

فحيث يظهر ، تطوى القبائل القريبة خيمها وتجمع عيسها وتفر مرتجفة من لقائه وجها لوجه ، ولكن القبائل النائية يصيبها دوار كذلك الذى يصيب العشاق . وينتزع المرء نفسه من سلام الخيام ومن ضمات الحسان ومن النوم الهنئ ، ويكتشف أن لا شىء فى الدنيا يعدل ذلك الفرح الذى يستشعره ، بعد شهرين من سير مضن إلى الجنوب ، وعطش محرق وانتظار مؤلم فى الرياح الرملية ، لا شىء يعدل ساعة الهجوم فجأة فى الفجر على جند عطّار الراكب وذبح اليوزباشى إن أراد الله .

واعترف لى كمال بقوة بونافوس .

إنى أعرف الآن سرهم . هم كمن يعشق امرأة فيحلم بوقع خطاها وهى خالية البال ويتقلب طيلة ليله وقد أمضته وأحرقته تلك النزهة التى رآها فى حلمه ، وهكذا تعذب خطوات بونافوس النائية نفوس هؤلاء الرجال . فذلك المسيحى فى ثياب البدو على رأس مئتين من قرصانه البدو ، قد استثار القبائل ضده ونفذ فى قلب البيداء الثائرة حيث يستطيع أى رجل من رجاله ، وقد تخلص من قيود الفرنسيين ، أن يستيقظ من عبوديته وأن يقدمه — دون خشية العقاب — ضحية لآلهه على مائدة صخرية ، حيث لا يصدهم إلا سحر عظمته وحيث يروعهم منه كل شىء

حتى ضعفه . وهاهوذا يسير بينهم هذه الليلة وهم نيام . يسير ويسير خالى البـال ، فترنّ خطواته حتى تصل إلى قلب البيداء .

وكان معين يفكر ومازال جامدا فى آخر الخيمة ، وكأنه قاعدة تمثال من الجرانيت الأزرق لا يلمع فيـه سوى عيناه وخنجره الفضى ، ذلك الخنجر الذى لم يعد الآن لعبة . فياله من تغير عظيم ذلك الذى طرأ عليه منذ أن انضم للقبائل الثائرة ! إنه يحس الآن ، كما لم يحسّ أبدا ، نبله العظيم . إنه يسحقنى باحتقاره لأنه سيصعد نحو بونافوس ، لأنه سيبدأ سيره فى الفجر ، يدفعه بغض له كل علامات الحب .

وانثنى معين مرة أخرى نحو أخيه وكلمه بصوت ثم رنا إلىّ ببصره . فسألت :

— ماذا يقول ؟

— يقول إنه سيطلق النار عليك لو قابلك بعيداً عن الحصن .

— لماذا ؟

— يقول : إنك تملك الطائرات وتملك اللاسلكى ولديك بونافوس ، ولـكنك لا تملك الحقيقة .

وبقى معين جامدا فى خماره الأزرق بطياته التى تحاكى طيات التماثيل ، وهو يصوّب نظره إلىّ .

— إنه يقول : إنك تأكل الخضر كالماعز والخنزير كالخنازير. ونساؤكم لاحياء فيهنّ، يبدين وجوههنّ، ولقد رأى بعضهن. إنه يقول : أنت لا تصلى أبدا . إنه يقول : ماجدوى طائراتك وجهازك اللاسلكى وضابطك بونافوس ، ماجدواها كلها إذا كنت لاتملك الحقيقة ؟

وإنى ليروعنى ذلك البدوى الذى لايحمى حريته ؛ فالانسان حرّ دائما فى الصحراء ، ولايحمى ثروات بادية للعيان ، فالصحراء عارية لا ثروة بها ، ولكنه يحمى مُلكا خفيا . وفى صمت الأمواج الرملية ، يُسيّر بونافوس جنده كقرصان قديم ، وبفضله لم يعد ذلك المخيم فى رأس چوبى مسكن رعاة متعطلين ؛ فقد أقضت عاصفة بونافوس مضجعه ، وبفضله حُزمت الخيام فى المساء . وما أشد الصمت فى الجنوب : إنه صمت بونافوس ! وذلك الصياد القديم ، معين ، يصغى له وهو يسير بين الرياح .

ولن يفرح أعداء بونافوس عندما يعود إلى فرنسا ، وإنما سيبكونه كما لو كان رحيله قد حرم بيداءهم أحد قطبيها ، وسلب حياتهم شيئاً من سحرها ، وسيسألوننى :

— لماذا رحل ضابطكم بونافوس ؟

— لا أدرى . . .

لقد خاطر بحياته ضدهم سنين عددا ، واتخذ لنفسه قواعد من قواعدهم ونام متوسداً أحجارهم . وأثناء ذلك الطراد الدائم عرف مثلهم ليالى النجوم والرياح ، وها هو ذا يدلّ برحيله على أنه لم يكن يقوم بدور أساسىّ فى حياته ؛ فانه يغادر المكان بمرح وخفة . وهؤلاء البدو الذين يخلفهم وراءه يقومون بأدوارهم فرادى ، هؤلاء البدو ، يفقدون الثقة فى معنى من معانى الحياة التى لم تعد تغترق الناس حتى النهاية . وهم رغم ذلك يريدون أن يثقوا فيه فتراهم يقولون :

— سيرجع بونافوس .

— لا أدرى .

يظن رجال القبائل أنه عائد إليهم ؛ فمسرّات أوروبا لم تعد تكفيه وترضيه ، كلا ، ولا لعبة « البريدج » فى المعسكر ولا الترقيــة ولا النساء . سيرجع بونافوس وقد ساورته عظمته المفقودة ، سيرجع حيث تخفق القلوب لكل خطوة من خطواته كأنها خــطوة نحو الحب . وربما ظنّ أنه لم يكن يحيا هنا إلا أحدى مخاطراته ، ولـكنه سيكتشف ، على مضض ، أنه امتلك الثروات الحقيقية هنا فى البيداء حيث كان له سحر الرمال وعالم

الليل والصمت ، ووطن الرياح والنجوم . وإذا عاد بونافوس في يوم من الأيام فسينتشر خبر قدومه من أول ليلة حتى ليصل إلى إلى كل الأراضي الثائرة . وسيعلم رجال القبائل أنه ينام في مكان ما من الصحراء بين المئتين من قرصانه . وعندئذ تُقاد العيس للسقيا في صمت وسكون ، وتُجهز مؤن الشعير وتُفحص البنادق ، ويدفع الرجال ذلك البغض أو ذلك الحب .

— خبئني في طائرة إلى مراكش . . .

٦

كان هذا التوسل يوجهه إلى ، كل ليلة في رأس چوبي ، عبد أسره رجال القبائل ، وبعد هذا التوسل ، وبعد أن يبذل ما في وسعه ليعيش ، يجلس القرفصاء ويُعد لي الشاي ثم يهدأ لمدة يوم ؛ لأنه اعترف بسره إلى الطبيب الوحيد الذي يستطيع شفاءه ، لأنه توسل إلى الإله الوحيد الذي يستطيع خلاصه . ثم ينحني على الغلاية فيجتر الصور الساذجة لحياته ، ويسترجع أرض مراكش السوداء وبيوتها الوردية ويستعيد تلك النعم البسيطة التي حرمها منذ أسره . ولم يحقد عليَّ أبدا لسكوتي ولتأخري في منحه الحياة ؛

فلم أكن ، بالنسبة له ، رجلا شبيها به ، ولكنى كنت قوة يحاول تحريكها ، كأنى الريح الطيبة التى ستهب على مصيره ذات يوم .

ولكنى أنا الطيار البسيط ، رئيس مطار رأس جوبى لبضعة شهور ، أنا الذى لا أملك إلا كوخا حقيرا بجوار الحصن الأسبانى وبه حوض وإبريق ماء أجاج وسرير صغير ، كانت أوهامى عن نفسى أقل من ذلك بكثير . وقلت له :

— سأحاول ذلك ياعزيزى بارك . . .

وكل الرقيق يُدعوْن بارك وهكذا كان اسمه بارك . ورغم أنه قضى فى الأسر أربع سنين فإنه لم يكن قد استسلم بعد . فمازال يذكر أنه كان ملكا فى سالف الأيام . وسألته :

— ما مهنتك فى مراكش يابارك ؟

كانت له مهنة عظيمة فى مراكش حيث مازالت تعيش زوجه وأطفاله الثلاثة :

— كنت قائد قطعان ، وكان اسمى محمدا !

كان الرؤساء هناك يستدعونه ويقولون له :

— عندى أبقار للبيع يامحمد . إذهب وهاتها من الجبل .

أو :

— عندى ألف رأس من الغنم فى السهل قُدها إلى المراعى العالية .

وكان بارك يسير مسلحا بصولجان من شجر الزيتون، وهو يسيطر على هذه الهجرة . فهو المسؤول الوحيد عن رعيته من النعاج . يبطىء خطا السريع منها إذا كانت على وشك الولادة ، ويحض الكسالى على النشاط ، كان يسير والثقة والطاعة تحفان به . فهو وحده الذي يعلم إلى أي أراض موعودة تسير الرعية ، وهو وحده الذي يقرأ طريقه في النجوم ، يثقله علم لا تشاركه فيه رعيته ، فهو يقرر بمفرده وبمحض حكمته ساعة الراحة وساعة السقيا . ويبقى الليل قائما بين رعيته يتملكه العطف عليها وهو غارق في صوفها حتى ركبتيه . هو طبيبها ونبيها وملكها ، ولقد كان يصلي من أجلها .

وذات يوم مر به أعرابيون وقالوا له :

— تعال معنا نأت ببعض الحيوانات من الجنوب .

وسيروه طويلا ، وبعد ثلاثة أيام ألفى نفسه في طريق جبلي على تخوم الأراضي الثائرة ، وعندها وضع أحدهم يده على كتفه ببساطة وأسماه بارك وباعه .

وعرفت رفيقا آخرين عندما كنت أذهب كل يوم لتناول الشاي في إحدى الخيام . وكنت أتمدد عاري القدمين على بساط

الصوف الغزير الذى يعتبر ترف البدوى ، وهو يقيم مسكنه عليه لبضع ساعات . وكنت أتذوق ساعتئذ رحلة النهار . وفى الصحراء يحس المرء سير الزمن . ففى لهب الشمس يتقدم نحو الماء ، نحو ذلك النسيم الذى يشمل المرء ويزيل عنه آثار العرق . وفى لهب الشمس يتقدّم الانسان والحيوان نحو مصير محتوم كالموت ، يتقدمون نحو تلك المسقاة الكبرى . وهكذا لا تكون العطلة فى الصحراء عبثاً . وكل نهار يبدو جميلا كتلك الطرق الموصّله للبحر .

وكان أولئك الرقيق يدخلون الخيمة عندما يُخرج الرئيس المسخن والغلاية والأكواب من صندوق الكنوز الثقيل الذى يحوى أشياء عجيبة . فبه أقفال بلا مفاتيح ومزاهر بلا زهور ومرايا زهيدة القيمة وأسلحة عتيقة ، فإذا سقطت فى الرمال ذكرت الانسان بزبد السفن الغارقة .

وحينئذ يتقدم الرقيق فى صمت ، فيملأ المسخن بأعشاب جافة وينفخ اللهب ثم يملأ الغلاية بالماء ، ويستخدم عضلاته القادرة على اقتلاع أضخم الأشجار ، فى عمل تستطيع تأديته بنت صغيرة . وتراه هادئا ، فالحياة قد اغترقته ، حياة تافهة تقتصر على تحضير الشاى والعناية بالهجين وتناول الطعام . وفى وقدة النهار يسير الناس نحو الليل ، وتحت ثلج النجوم العارية يتمنون لظى النهار .



طيلة ساعات ، تلقي الطائرة ظلها على فسيح الصحراء

إنها لسعيدة بلاد الشمال إذ تخلق لها الفصول في الصيف أسطورة الثلج ، وفي الشتاء أسطورة الشمس . وتعيسة البلاد المدارية ؛ إذ لا يتغير شيء تقريبا في لظى حرّها . ولكنها سعيدة أيضاً الصحراء ، ففيها يدفع الجديدان الناس من أمل إلى أمل .

ويجلس الرقيق الأسود القرفصاء أمام باب الخيمة ، ويتذوق أحياناً نسيم المساء . ولم تعد تطفو الذكريات في جسم هذا الأسير ، فهو لا يذكر إلا لماما ساعة اختطافه والضربات التي كيلت له والأذرع التي ألقت به في ليل العبودية . إنه يغوص منذ تلك الساعة في غيابة نوم عجيب ، وقد حُرِم كالأعمى أنهار السنغال الهادئة ومدن مراكش البيضاء . وحُرِم كالأصم من الأصوات التي كانت أليفة لديه . وليس هذا الأسود بائساً وإنما هو مريض؛ فلقد هبط ذات يوم في دائرة الحياة البدوية وارتبط بهجرات البدو ، وأوثق طيلة الحياة بمساراتهم في الصحراء ، فأي شيء بقي له الآن من ماضيه ؟ ماذا بقي له من بيته ومن امرأته ومن أولاده ، وقد أمسوا بالنسبة له موتى بين الموتى . . . ؟

أولئك الذين عاشوا طويلا في حب عظيم ثم حرموا ذلك الحب ، تراهم يضجرون أحيانا من عليائهم الفريدة فيهبطون مقتربين من الحياة ويسعدون بحب متواضع . إنهم يستعذبون

التسليم والخضوع والسلام. وهكذا ترى الرقيق نخورا بنار سيده.
وأحيانا يقول السيد لرقيقه :
— خذ . . . هذا لك .

إنها الساعة التي يحسن فيها السيد لعبده ، ساعة المساء ، حيث تولى كل متاعب النهار ونيرانه ، ويدخل السيد ورقيقه جنبا إلى جنب فى نسيم الليل . ويهب السيدُ عبدَه كوب شاى . وترى العبد يقبل قدمى سيده من أجل هذا الكوب ، ذلك لأن المعروف قد أثقل كواهله . إن العبد لا يوثق بالسلاسل أبدا ، فما هو فى حاجة إليها . وما أعظم إخلاصه لسيده ! لقد نسى الرقيق الملك الأسود الذى كان يستقر بين جنبيه وأمسى أسيراً سعيدا .

ولكن سيأتى يوم يُحرر فيه ذلك العبد ، يوم يمسى عجوزا لا يساوى ثمن مأكله أو ملبسه فتمنح له حرية لا حدّ لها . ويبقى ثلاثة أيام عارضا نفسه من خيمة إلى خيمة ، ولكن عبثا ، وفى نهاية اليوم الثالث ينام على الرمال . ولقد رأيت فى جوبى أرقاء يموتون هكذا عرايا . وكان البدو يمرون بجوارهم وهم فى حالة النزع ولكنهم لا يقسون عليهم ، ويلعب الأطفال قرب هذه اللفافة السوداء ، ويجرون كل صباح ليروا إذا ما كانت بالعبد نسمة من الحياة ، ولكنهم لا يسخرون من خادمهم القديم . وكل ذلك

يتفق مع النظام الطبيعى لديهم . فكأن عملهم بمثابة القول له : « لقد أجهدت نفسك ، فلك الآن الحق فى النوم . إذهب لتنام . » والعبد متمدد يشعر بالجوع ، وجوعه ليس إلا دوارا ، ولكنه لايشعر بالظلم وهذا وحده هو ما يعذب الناس . لقد كان يمتزج بالأرض شيئاً فشيئاً . أنضبت الشمس معينه وتلقته الأرض . ثلاثين سنة من العمل ثم ينال حقه فى النوم وفى الأرض .

لم أسمع الأنين أو الشكوى من أول من قابلت من الرقيق . فما كان ليشكو من أحد . رأيت فيه نوعا من الرضاء الغامض ، رضاء الجبلى التائه ، نفدت قواه ورقد فى الثلج متدثراً بأحلامه ومشتملا بالجليد . لم يكن ألمه الذى عذبنى ، كلا ، وما أظن أنه كان يتألم . وإنما بموت رجل يذهب عالمَ . وكنت أسائل نفسى أى صور ولت مع هذا الرجل ؟ وأى مزارع فى السنغال وأى مدائن بيض فى جنوب مراكش غاصت شيئاً فشيئاً فى النسيان . وما استطعت أن أعلم إذا كانت قد خبت هموم وضيعة فى ذلك الجسد الأسود ، كتحضير الشاى ، وسقاية الحيوانات . . . وما استطعت أن أعلم إذا كانت قد نامت فيه نفس عبد رقيق ، أم هل نشر الرجل فيض من الذكريات فمات فى عظمته الغابرة . كنت أشبّه عظم جمجمته الصلد بصندوق الكنوز القديم ، ولم

أكن أدرى أى حرائر ملوّنه ، ولا أى صــور من الحفلات ، ولا أى بقايا عديمة الجدوى هنا فى الصحراء ، قد خرج من ذلك الصندوق الغارق . كان الصندوق أمامى مقفلا وثقيلا . ولم أكن أدرى أى نصيب من الدنيا كان يذهب أثناء هذا النوم الخارق فى الأيام الأخيرة ، ولا أى نصيب من الدنيا كان يولى فى هذا الضمير وفى هذا الجسد ساعة انطفائهما .

ـــ كنت راعيا وكنت أدعى محمدا . . .

كان بارك أول أسير أسود رأيته يقاوم . ولم يكن بالهين عليه أن يعتدى رجال القبائل على حريته ، وأن يجعلوه فى يوم واحد أكثر عراء من وليد ، ولـكن هناك عواصف تعصف فى ساعة واحدة بكل ثروات الانسان . وإنما الأدهى من ذلك أنهم هددّوه فى شخصه . ولم يستسلم بارك على حين أن الـكثير من الأسرى لو كانوا مكانه لتركوا ذلك الراعى الفقير المعنّى طول العام ليكسب قوته ، يموت فى نفوسهم .

ولم يهنأ بارك بالعبودية كما يهنأ المرء بسعادة وضيعة بعد أن يملّ الانتظار . ولم يرد أن تكون له مسرات العبيد التى تتوقف على فضل سادتهم . واحتفظ لمحمد الغائب بذلك المنزل الذى كان

يسكنه محمد فى حنايا صدره . منزل يشيع الحزن فيه؛ لأنه منزل خالٍ ، ولكن لن يسكنه أحد سواه . كان بارك شبيها بذلك الحارس الذى هرم وهو باق فى أعشاب المسالك ، وفى ضجر الصمت ، يفنى إخلاصاً .

لم يكن يقول : « أنا محمد بن الحسين » ، ولكن : « كنتُ أدعى محمدا » . كان يحلم باليوم الذى يُبعث فيه ذلك الشخص المنسى فيطرد صورة ذلك العبد من نفسه . وكانت تعود له أحيانا فى هدأة الليل كل ذكرياته كاملة كأنها إحدى أغنيات الطفولة . وقص علينا المترجم الأعرابى أنه كان يتكلم أثناء نومه عن مراكش ويبكى . وما من أحد يتخلص فى وحدته من تلك الذكريات . لقد استيقظ الإنسان الحرّ وتمطى وبحث إلى جواره عن امرأته فى هذه البيداء التى لا تقترب فيها امرأة من بارك ، وتسمع إلى خرير الماء هنا حيث لم يجد ماء أبدا . وظنّ بارك ، وهو مقفل العينين ، أنه يقطن بيتاً تحت نجم ثابت ، هنا حيث ينزل الناس بيوتا من الوبر وحيث يسيرون مع الرياح . وأتانى بارك محملا بهذه الذكريات القديمة الحبيبة وقد بُعثت فيه بعثاً معجزا كما لو كان قطبها قد اقترب . كان يودّ أن يقول لى إنه متأهب ، وإن كلّ عواطفه متأهبة ، ولم يكن ينقصه إلا العودة

لينثرها على من يشاء . وكان يظن أن إشارة منى تكفى لذلك . كان بارك يبتسم ويدلنى على الحيلة ولم أكن قد فكرت فيها بعد .

— غداً يسافر البريد . خبئنى فى الطائرة إلى أجادير . . .

— يالك من مسكين ياعزيزى بارك !

كيف نستطيع مساعدتك على الهرب ونحن هنا فى أراضى العصاة الثائرين ؟ لو فعلنا ذلك لانتقم رجال القبائل منا فى اليوم التالى أشنع انتقام لهذه السرقة ولهذه الإهانة . وكنت قد حاولت شراءه بمعاونة ميكانيكىّ المطار : لوبرج ومارشال وأبجرال ، ولكن رجال القبائل لايلقون كل يوم أوروبيين مثلنا يبحثون عن شراء رقيق ، ولذلك أرادوا أن يستغلوا هذا الأمر .

— ثمنه عشرون ألفا من الفرنكات .

— أتسخر منا ؟

— أنظر إلى ذراعيه القويتين . . .

ومرت شهور فى هذه المساومات .

وأخيراً انخفض ما يطلبه رجال القبائل ، فرأيت نفسى قادرا على شراء بارك ، وذلك بمعاونة بعض أصدقائى بفرنسا ، وكنت قد كتبت لهم طالبا معاونتهم .

وكانت مفاوضات رائعة استمرت ثمانية أيام . وكنا نجلس فى حلقة على الرمال ، أنا وخمسة عشر رجلا من القبائل . وكان يساعدنى سراً لص يدعى «زين ولد الرعطارى» وهو من أصدقاء المالك وأصدقائى . وقال له بناء على نصائحى :

— بعه فإنك ستفقده . إنه مريض ولو أن المرض لا يظهر عليه الآن لأنه مستقر فى أحشائه ، ولكن سيأتى يوم يبرز فيه . بعْهُ حالا للفرنسىّ .

وكنت قد وعدت لصاً آخر يدعى راجى بسمسرة أعطيها له لو ساعدنى على إتمام الصفقة . وكان راجى يحاول خديعة المالك فيقول له :

— ستستطيع بهذه النقود أن تشترى جمالا وأسلحة وذخيرة ، وهكذا تستطيع تسيير قافلة مقاتلة تحارب بها الفرنسيين ، وتستطيع أن تجلب من عطار أربعة أو خمسة من الرقيق الجدد . تخلص من هذا الرقيق العجوز .

وباعونى بارك . وقفلت عليه باب الكوخ بالمفتاح ؛ إذ لو خرج قبل مرور الطائرة لاختطفه رجال القبائل وباعوه فى جهة أخرى .

ولكنى حررته من العبودية . وكان حفلا جميلا . وأتى الشيخ ، وسيد بارك السابق ، وابرهيم قائد جوبى ، وعانقه بحرارة

هؤلاء القرصـــان الثلاثة الذين لو قابلوه قرب الحصن لذبحوه ليسخروا منى ، ثم وقعوا عقدا رسميا . وقالوا له :

— أنت الآن ابننا .

وكان يعتبر ابنى أيضاً حسب القانون .

وعانق بارك كل آبائه .

وعاش فى كوخنا سجيننا مُتنعّما حتى ساعة الرحيل . وكان يحملنا نقصّ عليه كل يوم عشرين مرة ، كيف ستكون رحلته هيّنة . سيهبط فى أجادير وتعطى له تذكرة سفر بالسيّارة من هناك حتى مراكش . وكان بارك يقلد الرجل الحرّ كما يقلد طفل أحد المستكشفين. لقد ملأ عقله ذلك الرحيل إلى الحياة ، وتلك السيارة ، وجماهير الناس ، وتلك المدن التى كان يوشك أن يعود لرؤيتها .

وأعطانى لوبرج ألفا من الفرنكات باسمه واسم مارشال وأبجرال ، لنسلمها لبارك حتى لا يموت جوعا عند وصوله ، وحتى يستطيع أن يعيش إلى أن يجد عملا .

وفكرت فى أولئك السيدات العجائز القائمات بأعمال خيرية واللاتى يتبرعن بعشرين من الفرنكات ويُصررن على أن

يشكرن ، فكرت فيهن وأنا أرى عمال طائرات ، كلوبرج ومارشال وأبجرال ، يتبرعون بألف من الفرنكات ولا يعتقدون أنهم يقومون بعمل خيري ولا يطلبون شكرانا على صنيعهم . ولم يكن عملهم هذا بدافع الرحمة كأولئك السيدات العجائز اللاتي يطمعن في السعادة . وإنما كان أولئك الرجال يساهمون في إرجاع الكرامة الإنسانية لإنسان . وكانوا يعلمون تمام العلم ، كما كنتُ أعلم أنا أيضا ، أن البؤس سيكون أول صديق وفي يلقاه بارك ، بعد أن يذهب منه سكر العودة . وكانوا يعلمون أنه ، قبل ثلاثة شهور ، سيشقى في اقتلاع أخشاب السكك الحديدية . وسيكون أقل سعادة ، مما كان هنا في الصحراء . ولكن كان له الحق أن يكون بين أفراد عائلته .

— هيا بنا يا عزيزي بارك ، اذهب وكُن إنسانا .

كانت الطائرة تنتفض استعدادا للرحيل ، وانحنى بارك للمرة الأخيرة نحو تلك الوحشة التي تشمل رأس جوبي ، وكان قد تجمع أمام الطائرة مئتان من رجال القبائل ليروا كيف يكون تطلّعة عبد على أبواب الحياة . ولو تعطلت الطائرة بعد ذلك لاستولى عليه أولئك الرجال مرة أخرى .

وكنا نودع وليدنا البالغ من العمر خمسين عاما ، وكنا

مضطربين شيئا ما ونحن ندفع به لصروف الدنيا . وقلنا له :

— وداعا يا بارك .

— كلاّ .

— ماذا تعنى بقولك : كلاّ ؟

— كلاّ ، لست بارك . أنا محمد بن الحسين .

وأتتنا أخباره لآخر مرة عن طريق عبد الله ، العربىّ الذى ساعد بارك فى أجادير بناء على طلبنا .

كانت السيارة ستغادر المدينة فى المساء ، وكان لدى بارك نهار كامل . وتجول بادئ الأمر طويلا فى تلك المدينة الصغيرة حتى إن عبد الله أحس قلقه ورقّ لحاله فسأله :

— ماذا فى الأمر .

— لا شئ . . .

كان بارك قد ألفى نفسه فجأة فى لجة الحرية ، ولذا لم يكن قد استشعر بعدُ أنه بُعث . نعم لقد أحس السعادة ولكن الفرق قليل بين « بارك » الأمس « وبارك » اليوم ماخلا تلك السعادة . ولكنه الآن أصبح يشاطر الآخرين هذه الشمس ويساويهم فى تمتعه بها وفى حقه فى الجلوس تحت عريشة ذلك

المقهى العربي . ولقد جلس هناك وطلب شايا له ولعبد الله . وكان ذلك أول علامة من علامات سيادته . وكانت قدرته جديرة أن تغيّر هيئته فتجعل منه خلقا آخر . ولكن الخادم قدّم له الشاي بلا دهشة كما لو كان يقوم بعمل عاديّ ، فلم يكن يحسّ وهو يسكب الشاي أنه يُحيّي رجلا حرّا . وقال بارك لزميله :

— فلنذهب إلى مكان آخر .

وصعدا إلى « القصبة » التي تشرف على أجادير ، وأتت إليهما الراقصات وأبدين عطفا عظيما حتى خُيّل لبارك أنه سيحيا حياة أخرى . وكُنّ يستقبلنه بترحاب في حياته الجديدة دون أن يدرين ذلك . وأخذن بيده وقدّمن له الشاي بظرف وعطف ، ولكن كما لو كنّ يقدمنه لشخص عادي . وأراد بارك أن يقصّ قصة بعثه فتضاحكن بودّ وبَدَوْن مسرورات لسروره . وأراد أن يثير عجبهن وإعجابهن فقال : « أنا محمد بن الحسين » . ولكن ذلك لم يدهشهنّ ، فلكل الناس أسماء ، وكثير منهم يأتي من بلاد نائية مثله .

وأخذه عبد الله للمدينة ، وطافا معا أمام حوانيت اليهود ، وتطلّع إلى البحر وفكّر أنه قادر على أن يسير كما يشاء في أي اتجاه ، وأنه حرّ . . . ولكن تلك الحرية بدت له مُرّة المذاق فقد

كشفت لعينيه إلى أى حد كانت تنقصه الروابط التى تربطه بالدنيا.

وعندئذ مرّ طفل فربت بارك على خدّه بحنو وتبسم الطفل ، ولم يكن ابنَ سيد يتملقه ، ولكنه كان طفلا ضعيفا وهبه بارك عطفه فتبسم له الطفل . وأيقظ ذلك بارك فبدا لنفسه أكثر أهمية على الأرض ؛ لأن طفلا ضعيفا تبسم له . وبدأ يدرك شيئا ما ، وسار بخطوات واسعة فسأله زميله عبد الله :

— عمَّ تبحث ؟

فأجاب بارك :

— لا شيء .

ولكنه لما رأى جماعة من الأطفال فى منعطف الطريق توقف . وصعد الطرف فيهم وهو صامت ثم انثنى نحو حوانيت اليهود وعاد مُحملا بالهدايا . فثار عليه عبد الله وقال له :

— أيها الأحمق . احتفظ بنقودك !

ولكن بارك لم يعد يستمع إلى شيء . وأشار إلى الأطفال بجِد فارتفعت نحوه الأكف الصغار وامتدت إلى اللعب والأساور والخفاف المخيطة بالذهب . وكان كل طفل إذا ما أخذ لعبته يفر كالمتوحش . ولما ترامى الخبر إلى بقية الأطفال بأجادير سارعوا نحوه وألبسهم بارك النعال المخيطة بالذهب . وبلغت الإشاعات بعض

الأطفال فى ضواحى أجادير. فنهضوا وساروا متصايحين نحو ذلك الإله الأسود. وتعلقوا بثيابه القديمة، ثياب الرقيق، وكلهم يطلب ما يخصه. وهكذا كان بارك يبدد كل ما يملك. فظن عبدالله أنه جُن من الفرح. ولكنى أعتقد أن الأمر لم يكن رغبة من جانب بارك فى أن يجعل الآخرين يشاركونه فرحه الذى لا حد له.

كان حرّا، فكانت له كل النعم الضرورية، وله الحق أن يجعل الآخرين يحبونه، وله الحق أن يسير نحو الشمال أو نحو الجنوب، وله الحق أن يعمل ليكسب عيشه. فما جدوى تلك النقود إذن؟ ما جدواها وهو يحس فى نفسه نقصاً قويا؟ يحس حاجة قوية لأن يكون رجلا بين الرجال تربطه بالبشر تلك الوشائج التى تصل الإنسان بالإنسان. لقد أبدت راقصات أجادير عطفا عليه ولكنه خرج من لدنهن كما دخل بكل سهولة؛ إذ لم يكن فى حاجة إليه. وذلك الخادم فى المقهى العربى، وأولئك المارة فى الشوارع، كلهم كان يحترم فيه الرجل الحر ويشاركه الحياة ويساويه فى التمتع بها، ولكن ما من شخص أبدى أنه فى حاجة إليه. كان حرا حرية لا حد لها حتى إنه لم يكن يشعر بثقله على الأرض. كان ينقصه عبء تلك العلاقات الإنسانية التى تعوق سير الإنسان، كانت تنقصه تلك الدموع وذلك الوداع والعتاب

والمرح ، وكل ما يبدى الإنسان عطفه عليه وكل ما يبغضه كلما هم بحركة . كانت تعوزه تلك الروابط التى تثبته بالآخرين وتجعله ثقيلا . . . ثم إذا بآلاف الآمال تثقله مرة واحدة . . .

وبدأ عهد بارك فى الحياة ، فى مجد تلك الشمس الآفلة وبين ذلك النسيم الذى طالما تمناه وكان هناءه الوحيد ومأواه الفريد . ولما دنت ساعة الرحيل تقدم بارك وهو غارق فى لجة من الأطفال كما كان يغرق فى سالف الأيام بين نعاجه ، تقدم شاقا أول طريق له فى الدنيا . ولربما عاد غداً إلى البؤس بين أفراد عائلته ، ولربما أصبح مسئولا عن حياة عدد من الناس لا تستطيع تحملهم ذراعاه الفانيتان . ولكنه قد بدأ يشعر بثقله الحقيقى . كان كملاك بالغ الخفة عاجز عن الحياة بين البشر ، فخاط رصاصا ثقيلا بمنطقته ، وهكذا سار بارك بخطوات ثقيلة ؛ إذ كان يجذبه نحو الأرض عديد من الأطفال ، وهم يطالبونه بالخفاف الذهبية .

٧

هذه هى الصحراء . تجعل قواعد الحياة المقدسة من رمالها عالما . ففى الصحراء التى يحسبها المرء قاعا صفصفا ، تمثل رواية

خفية تهز مشاعر الناس . وليست الحياة الحقة ، فى الصحراء ، هجرة قبائل سعيا وراء المراعى ، ولكنها جهاد يبذل . وما أعظم الفرق بين نوع الرمال فى الأراضى الخاضعة ونوع الرمال فى الأراضى الثائرة ! أوَ ليس الأمر كذلك بالنسبة لكل الناس ؟ فهذه الصحراء الثائرة التى استحالت شيئا آخر ، هذه الصحراء تذكرنى بتلك الحديقة المعتمة المذهبة التى كانت تملأها مخيلاتنا بآلاف الآلهة فتجعل منها عالما لا حد له ، عالما نخلقه فى تلك المساحة الصغيرة التى لم نعرفها بأجمعها ولم ننقب فى كل جنباتها . كنا نصنع حضارة مغلقة يصبح فيها لوقع خطواتنا وللأشياء المحيطة بنا معنى لا نجده فى حضارة أخرى . والآن أصبحنا رجالا نعيش فى ظل قوانين أخرى ، فماذا بقى لنا من تلك الحديقة المفعمة بظلال الطفولة ؟ ماذا بقى من تلك الحديقة المسحورة ، الباردة ، المحرقة ، التى يعود إليها المرء الآن فيسير بها يحدوه نوع من اليأس وهو يمر حذاء ذلك الجدار المعتم ، ويعجب كيف كان هذا المكان الضيق يتسع لذلك العالم اللانهائى ؟ وعندئذ نفهم أننا لن نرجع ثانية إلى ذلك العالم اللانهائى ؛ لأننا يجب أن نعود إلى ألعابنا لا إلى حديقتنا إن شئنا العودة إليه .

ولكن لم تعد هناك الآن أراض ثائرة ولم يعد هناك سر

غامض فى رأس جوبى أو سيزنروس أو بورتو كانسادو أو صاغة الحمراء ، فقد خبت الآفاق التى كنا نجرى نحوها الواحد تلو الآخر ، كتلك الحشرات التى تفقد ألوانها إذ ما وقعت فى شرك الأيدى . ولـكن ذلك الذى كان يطاردها لم يكن ألعوبة فى يد الوهم . ونحن أيضا لم نـكن مخطئين عندما كنا نجرى نحو تلك الاكتشافات . كما لم يكن سلطان ألف ليلة وليلة مخطئا إذ كان يبحث عن مادة لطيفة حتى إن أسيراته الجميلات كان ينطفىء سراجهن فى الفجر بين ذراعيه ، وقد فقدن أثمن ما فيهن وهو لم يكد يمسسهن . لقد تغذينا بسحر الرمال ، وربما أتى فى قادم الأيام من يحفر آبار البترول فيها ومن يثرى من التجارة . ولـكنه سيأتى بعد فوات الأوان ، لأن غابات النخيل وثرى القواقع البكر قد وهبنا أثمن ما فيه ، ولم يكن لكل تلك الأشياء إلا ساعة حماس واحدة ، وقد عرفنا ها نحن وعشناها .

*

الصحراء ؟ لقد هيىء لى ذات يوم أن أمسها بقلبى . ففى أثناء رحلة إلى الهند الصينية عام ١٩٣٥ كنت أطير فى سماء مصر على تخوم ليبيا ، ووقعت فى الرمال كما يقع المرء فى شرك . وظننت أنى مائت . وهاك القصة .



حضارتان

٧

فى قلب الصحراء

١

عند ما وصلت إلى البحر المتوسط قابلت سحبا منخفضة فهبطت إلى ارتفاع عشرين مترا ، فإذا بوابل المطر يتكسر على حاجز الهواء (فى مقدم الطائرة) ، وبدا لى البحر كأنه يرسل دخانا ، فجاهدت جهادا عظيما لأرى أى شئ حتى لا أصطدم بسارية مركب .

وأخذ الميكانيكى أندريه بريفو يشعل لى السجائر ثم طلبت منه قهوة فاختفى فى مؤخرة الطائرة وعاد ومعه « الترموس » فأخذت أحتسى القهوة وأضغط من وقت لآخر على مقبض الغاز

لأحفظ سرعة دوران « المروحة » . ثم ألقيت نظرة سريعة على الميناءات فوجدت كل إبرة فى مكانها وكلها تسير سيرا حسنا . وألقيت نظرة خاطفة على البحر تحت ذلك المطر ، فرأيت أبخرة تتصاعد منه كما لو كانت تتصاعد من حوض ماء ساخن . ولو كنتُ فى طائرة مائية لأسفتُ لأن البحر يبدو كأنه حفرة عميقة ، فكيف يكون الأمر وأنا فى طائرة عادية ولن أستطيع الهبوط هنا بأية حال ، ولقد أحسست عندئذ أمانا مستحيلا لا أدرى له سببا . فالبحر جزء من دنيا أخرى غير دنياى ، والعطل هنا لا يتعلق بى ولا يهددنى ، فأنا فى هذه الطائرة لم أعَدّ لمواجهة البحر . . .

وبعد ساعة ونصف هدأ المطر وبقيت السحب منخفضة ولكن الضوء أخذ يخترقها كأنه بسمة عظيمة . وتأملت بإعجاب هذا التهيّؤ البطىء للجو الجميل . وأحسست فوق شيئا أبيض كالقطن . ثم انعطفت لأتفادى عاصفة هوائية ؛ إذ لم يكن من الضرورى أن أخترقها ، وإذا بى أرى فجأة أول فُرجة فى السحاب . . .

وكنتُ قد شعرت بها قبل أن أراها ؛ إذ لمحت أمامى خيطا فى لون المراعى ، كأنه الواحة ، خيطاً ناصع الخضرة غزيرها يشبه

حقول الشعير التي كان يخفق قلبي لمرآها في جنوب مراكش عندما كنتُ أعود من السنغال بعد أن أطير ثلاثة آلاف كيلومتر فوق الرمال . وهنا أيضا أحسستُ أني قد وصلتُ مكانا مأهولا وشعرتُ بمرح خفيف ، فاستدرتُ نحو بريفو وقلت له :

— هل انتهى كل شيء ؟ كيف الحال . . .

— الحال على ما يرام . . .

وهبطنا تونس ووقّعتُ على الأوراق أثناء ملء الخزانات بالوقود ثم غادرت المكتب ، فإذا بي أسمعُ صوتاً يحاكي صوت شيء يغور في الماء . ضجة خرساء بلا صدى . وتذكرتُ في الحال أنه قد سبق لي سماع مثل تلك الضجة وكانت انفجارا في حظيرة سيارات أودى بحياة رجلين . فاستدرت نحو الطريق المحاذي للمطار ورأيت سحابة من الغبار . لقد اصطدمت عربتان وهما تسيران بسرعة فائقة فتوقفتا مرة واحدة كأنهما قد وقعتا في الثلج . وجرى نحوهما بعض الناس وجرى الآخر نحونا وهم يصيحون :

— تكلموا « بالتليفون » . . . نادوا طبيبا . . . إصابة في الرأس . . .

وشعرت بانقباض فى قلبى ، فها هو ذا القدر قد أصابت سهامه ، فى ضوء المساء الهادئ ، جمالا أو ذكاء أو حياةً . . . وهكذا يسير القرصان فى الصحراء ، لا يُسمع وقعُ أقدامهم على الرمال . كان فى مخايمهم ضجة قصيرة الأمد يسمعها المرء كلما استعدّوا لغزوة . ثم يسكن كل شئ فى ذلك الجو المُذهب . فى سلام يحاكى هذا السلام وسكون كهذا السكون . . . ثم تكلم شخص بجوارى عن كسر فى الجمجمة ولم أكن أريد معرفة شئ عن تلك الجمجمة الخامدة الدامية ، فقفلت راجعا إلى الطائرة ولكن بقى فى قلبى شعور بالتهديد . وعمّا قليل سأسمع ضجة كهذه الضجة عندما أصطدم بالهضبة السوداء وأنا طائر بسرعة مائتين وستين كيلومترا فى الساعة . سأسمع ضجة القدر الذى كان ينتظرنا فى الميعاد.

والآن فلنرحل إلى بنى غازى .

٣

فلنرحل ، وما زال فى النهار ساعتان . وخلعت منظارى الأسود عندما وصلت طرابلس . وأخذت الرمال تبدو كالذهب . يا إلهى كم هذه الدنيا صحراء ! هأنذا أشعر مرة أخرى

أن الأنهار والظلال ومساكن الناس إنما يرجع وجودها إلى صدفة سعيـــدة . ويالة من نصيب عظيم نصيب الصخور والرمال !

ولـكن كل ذلك غريب عنى ، فأنا أعيش فى عالم الطيران ، وأشعر بهبوط الليل حيث يعتكف المرء كأنه فى معبد ؛ حيث يعتكف فى صلاة ذات مراسم لا بد منها ، ولا معين له فى هذه الصلاة ولا ظهير . وأخذ كل ذلك العالم الجاحد فى الاختفاء وسيذهب تماما عمــا قليل . وما زالت كل المناظر الطبيعية أمامى مشتملة بضوء شاحب ولـكن شيئاً ما بدأ يتبخر منها . وأنا لا أعرف شيئاً يساوى هذه الساعة ، وأؤكد أنه ما من شىء يساويها . وإنهم ليفهموننى تماماً أولئك الذين قهرهم ذلك الحب الذى لا يُعلَّل ، أولئك الذين قهرهم حبّ الطيران .

وهانذا أغادر الشمس شيئاً فشيئاً وأترك هذه المساحات الشاسعة المذهبة التى كانت ستحسن استقبالى لو تعطلت الطائرة ، وأودع تلك المعالم التى كانت ستهدينى سواء السبيل ، وأخلف ورائى جنبات الجبال المنعكسة على صفحة السماء والتى كانت ستحمينى من الأخطار ، وأدخل فى الليل وأخوض فيه ولم يعد معى أحد سوى النجوم . . .

وتختصر الدنيا طويلا ، ويدبر الضياء شيئاً فشيئاً ، وتختلط الأرض بالسماء قليلا قليلا ، وتصعد هذه الأرض ، وتبدو كالبخار المنتشر ، وترتجف النجوم الأولى على صفحة السماء كأنها تسبح فى ماء أخضر ، ولا بد من الانتظار طويلا حتى تمسى الشهب جامدة كالماس . ولا بد لى من أن أنتظر طويلا حتى أشاهد جريانها الصامت . وطالما رأيت الشرر يتناثر فى بعض الليالى ويعدو حتى كان يخيل إلىّ أن ريحاً صرصراً هبت على النجوم .

وفحص بريفو المصابيح الثابتة ومصابيح الإنقاذ . وغطينا الأنابيب بورق أحمر ، وطلبت إلى بريفو أن يضيف طبقة أخرى من الورق .

ما زال الضياء منتشرا . ولربما ألقى ستاراً على صورة الدنيا الشاحبة . ولربما حطم تلك الطبقة الآمنة التى تحيط بالأشياء فى الليل . لقد جن الليل ولكنه لم يمس بعد ذلك الليل الحقيقى ؛ إذ ما برح الهلال منيراً . وغاب بريفو فى مؤخرة الطائرة وعاد معه شطيرة وأخذت آكل عنقوداً من العنب . ولم أكن جوعان ولا عطشان . ولم أكن أشعر بأى تعب . وبدا لى أنى قادر على مواصلة الطيران عشر سنين سويا .

وغاب القمر .

وأعلنتنا المحطة اللاسلكية بأننا قد وصلنا بنى غازى .
وكانت تلك المدينة مستقرة فى غيابة ظلمة حالكة لا يزينها أى ضياء . ثم لمحت المدينة . وبينما أنا أبحث عن المهبط إذا بالأنوار الحمراء (التى تدل على الخطر) توقد وترسم مثلثا أسود على الأرض . وبدأت أستدير وصعد ضوء أحد الفنارات نحو السماء كأنه نافورة تقذف اللهيب ، ثم دار ورسم على الأرض طريقاً ذهبياً . واستدرت مرة أخرى لأتبين العقبات وكانت المعدّات الليلية لذلك المطار غاية فى الابداع ، ثم قلت السرعة وبدأت أهبط وكأنى أغور فى مياه سوداء .

كانت الساعة الحادية عشر مساء بالتوقيت المحلى عند ماهبطت المطار . وسرت متجهاً نحو الفنار ، وكان الضباط والجنود — وهم من أكثر الناس أدباً — يمرون من الظلام إلى ضوء الفنار الشديد ثم يختفون فى الظلام . وأخذوا أوراقى وبدأ العمال يملأون الخزانات بالوقود . وبعد عشرين دقيقة كان كل شئ قد تم . وقالوا لى :

— أدر طائرتك ثم طر فوقنا وإلا فلن نعرف إذا كان رحيلك قد تم على ما يرام .

والآن فلنرحل .

هأنذا أسير على ذلك الطريق المذهب نحو منفذ لا عقبات

فيه . وطارت طائرتى — وهى من طراز « سيمون » — قبل أن أصل إلى نهاية المكان المخصص للطيران، وتبعنى نور الفنار فضايقنى وأنا أريد أن أستدير ، وأخيراً تركنى ؛ إذ أحس القوم أن الضياء قد بهرنى ، ثم رجعت فى اتجاه عمودى وعندئذ أصابنى الفنار مرة أخرى ولكنه ما كاد يلمسنى حتى بعد عنى وأدار خرطومه الذهبى إلى ناحية أخرى ، وشعرت أن وراء تلك المناورات تحية عظيمة لى . ثم استدرت نحو الصحراء .

وأنبأتنى الأرصاد الجوية من باريس وتونس وبنى غازى ، أن رياحاً خلفية قد أخذت فى الهبوط بسرعة تتراوح بين ثلاثين وأربعين كيلومترا . وبدأت أحسب ما ستستغرقه الرحلة على أساس أنى أطير بمعدل ثلثمائة كيلومتر فى الساعة . . . واتجهت نحو منتصف المسافة بين الاسكندرية والقاهرة حتى أستطيع تجنب المناطق الساحلية المحرمة وحتى أستدل عن يمينى أو يسارى بأضواء إحدى المدينتين أو بأضواء مدن وادى النيل وذلك رغم ما سألقاه من تحول فى سيرى . وهكذا سأطير مدة ثلاث ساعات وعشرين دقيقة إذا لم تتغير الرياح ، ومدة ثلاث ساعات وخمسة وأربعين دقيقة إذا وهنت الرياح . وبدأت فى قلع ألف وخمسمائة كيلو متر فوق الصحراء .

لم يعد هناك قمر . وأمست السماء كالقار الأسود . وعلى هذا لن أستطيع أن ألمح أى ضوء ولن أستفيد من أى مَعْلَم ولن تصلنى أية إشارة إنسانية لو تعطّل جهاز اللاسلكى . ولم أحاول أن أرقب أى شئ ماخلا البوصلة وجهاز ضبط التوازن ، ولم أعد أهتم بشئ إلا باهتزاز خيط ضئيل منير من الراديوم على الستار المظلم لأحد الأجهزة . وعندما كان ينتقل بريفو من مكانه ، كنت أصحح برفق توازن الطائرة . ثم صعدتُ إلى ارتفاع ألفين من الأمتار حيث الرياح ملائمة كما قيل لى . وكنت فى أوقات متباعدة ، أضئ أحد المصابيح لأرى الميناءات المظلمة ولكنى كنتُ أقضى معظم الوقت فى الظلام بين كواكبى الضئيلة التى تشع ضوءاً فاتنا لا يخبو ، يحاكى ضوء النجوم والتى تحدثنى بلغة النجوم . وكنتُ كأحد الفلكيين ، أقرأ كتابا فى الميكانيكا السماوية ، وأحس كالفلكى بالجهد والصفاء . لقد خبا كل شئ فى العالم الخارجى ، ونام بريفو بعد أن جُهِد ما وسعه الجهد . وتذوقتُ أكثر من ذى قبل لذة الوحدة . وكنتُ أسمع زئير المحرك الحلو وأبصر أمامى ، على اللوحة ، كل تلك النجوم الهادئة.

وتأملتُ مصيرنا ، فرأيت أننا لا نستفيد شيئا من القمر ولا من الجهاز اللاسلكى ولن تصلنا بالدنيا أية صلة ، مهما ضؤلت ،

حتى نواجه شبكة الفنارات بوادى النيل . وأمسينا خارج كل شئ . فليس هناك إلا محرك طائرتنا يعلقنا ويبقينا فى هذا الليل المعتم . . . وها نحن أولاء نخترق ذلك الوادى الأسود ، وادى المحن والآلام ، الذى سمعنا عنه فى أقاصيص الجان ، ولا مُعين لنا هنا ، ولا عفوَ عن الأخطاء . لقد سُلّمنا إلى رحمة الله .

ثم رأيت نورا يسيل من نقطة بالجهاز الكهربائى ، فأيقظت بريفو ليطفئه ، وتحرك بريفو فى الظلام كأنه دُبّ ، وتقدّم يعالج الثقب بمناديل وبورق أسود فاختفى الضوء . كان ذلك الخيط من النور جزءاً محطما فى عالمنا ، ولم يكن نوره كضوء الراديوم الشاحب النائى وإنما كان يحاكى نورا ينبعث من إحدى الحانات ، ولم يكن كضوء النجوم ، ولكنه كان يبهرنى ويمحو ما عداه من أنوار .

وبعد ثلاث ساعات من الطيران ، تفجّر ضياء قوى عن يمينى فتطلعت إليه فأبصرت خطا طويلا من الضياء متعلقا بمصباح الجناح ، وكان هذا المصباح محجوبا عنى حتى ذلك الحين . وكان الضياء متقطعا ، يبدو ثم يختفى . وإذن فقد دخلت فى منطقة سحاب يعكس ضوء مصباحى . وكم كنتُ أتمنى أن أسير

فى سماء صافية وأنا على مقربة من معالم طريق . استضاء جناح الطائرة وثبت الضوء وأرسل أشعته ، وأمسى باقة وردية من زهور من نور . وغشيتنى هزات شديدة ترنحت لها وكنتُ أخوض ركاما من السحب لا أدرى سمكه ، فارتفعت حتى ألفين وخمسة أمتار دون أن أخرج منه ثم هبطت حتى ألف متر وما برحت الباقة الوردية ثابتة تزداد لمعانا . حسن إذن ، وليكن ما يكون ! وبدأت أفكر فى شئ آخر ، وسأرى عندما أخرج من هذا المأزق . ولكنى لا أحب هذا الضوء الشاحب الذى يشبه ضوء الحان .

ورأيتُ أنى أترنح . وكان ذلك طبيعيا ، ولكنى قد أصبتُ بهزّات طيلة طريقى رغم السماء الصافية والارتفاع الشاهق . ولم تكن الرياح قد هدأت ، ولابد أنى كنتُ أسير بسرعة تزيد عن الثلثمائة كيلومتر فى الساعة . وأيا كان الأمر ، فإنى لم أكن على علم دقيق بأى شئ ، وسأحددُ مكانى عندما أخرج من هذا السحاب...

وبدأت أخرج منه ، فاختفت الباقة الوردية فجأة ، وكان اختفاؤها نذيرا ؛ إذ تطلعتُ أمامى فأبصرت واديا ضيّقا بين السماء وحائط ركام جديد من السحب . وعادت الباقة الوردية إلى الحياة مرة ثانية .

لن أخرج إذن من حبائل هذا الشرك إلا لمدة ثوان قليلة .

وبعد ثلاث ساعات ونصف من الطيران ، بدأ ذلك السحاب يبعث فيّ القلق لأني كنت أقترب من وادي النيل كلما سرت كما أتخيل . ولربما استطعت رؤيته من المنافذ النادرة في السحب لو أوتيت قليلا من الحظ . ولم أعد أستطيع الهبوط أكثر من ذلك . وإذا كانت سرعتي أقل مما أعتقد فلا بد أني ما زلت أطير فوق أراض مرتفعة .

ولم أكن أشعر بأي اضطراب ، غير أني كنت أخشى ضياع الوقت ، فحددت لنفسي وقتا ينتهي بعد أربع ساعات وربع . فبعد تلك المدة سأكون قد تخطيت النيل حتى لو لم تكن هناك رياح ، وهو أمر بعيد الاحتمال .

وعند ما كنت أصل إلى أطراف السحب المهلهلة ، كانت الباقة تقذف نيرانا يأخذ سناها بالأبصار ، نيرانا تسرع ثم تنطفئ مرة واحـدة . وأنا لا أحب هذه الاتصالات الخفية مع شياطين الليل .

وبرز نجم أخضر أمام ناظريّ وأخذ يلمع كأنه الفنار . أهو نجم أم فنار ! وأنا لا أحب أيضاً هذا الضياء الشديد الخارق ، أو هذه الدعوة الخطيرة .

واستيقظ بريڤو وأضاء مصابيح الميناءات ، فدفعته عنى هو ومصابيحه أو لمحت شقا بين سحابتين فانتهزت الفرصة لأتطلع إلى أسفل ، وعاود بريڤو نومه .

ولم أر شيئاً .

وبعد أربع ساعات وخمس دقائق أتى بريڤو فجلس بجوارى وقال لى :

— كان يجب أن نكون فى القاهرة الآن . . .

— أعتقد ذلك . . .

— ما هذا ؟ أنجم هو أم فنار ؟

كنت قد خفضت سرعة المحرك ، ولذلك استيقظ بريڤو فهو شديد الحساسية لكل تغير يطرأ على أزيز الطائرة ، وبدأت الهبوط لأنزلق تحت كتلة السحب .

واطلعت على خريطتى . وتبين لى أنى اقتربت من وادى النيل ، وإذن فسأتلقى أنوار المدن من نوافذى . ولقد تخطيت تلك المدن من غير شك وعلى هذا فستصلنى أنوارها عن يسارى . وكنت أطير حينئذ تحت ركام السحب ، ثم حاذيت سحابة أخرى أخذت فى الهبوط إلى يسارى وابتعدت عنها لكيلا أقع فى حبائلها فاتجهت نحو الشمال الشرقى .

ولكن السحابة استمرت فى الهبوط وسدت علىّ منافذ الأفق جميعاً ولم أجرؤ على الهبوط أكثر من ذلك ، وقرأت مقياس الارتفاع فوجدت عليه الرقم ٤٠٠ ولكنى كنت أجهل الضغط الجوى فى ذلك المكان ولم يكن بمقدورى إذن أن أعرف الارتفاع بالضبط . وانحنى بريفو فصحت به قائلا : «سأطير نحو البحر لأنزل عليه حتى لا أصطدم بالأرض . . .»

ولكن لاشىء يثبت أنى قد صرت فعلا فوق البحر ، فالظلام تحت هذه السحابة حالك لا ينفذ منه شىء . وانحنيت على النافذة محاولا أن أقرأ شيئاً فى ذلك الليل ، مجاهداً أن أكتشف أنواراً أو إشارات . كنت كمن يبحث فى رماد الموقد عن شعل الحياة .

— أهو فنار بحرى !

ثم رأينا فى نفس اللحظة ذلك الشرك الذى يبدو ثم يختفى ! ياله من من جنون ! أين كان ذلك الفنار الخيالى الذى صنعه الليل ؟ وفى نفس اللحظة التى انحنيت فيها أنا وبريفو لنحاول العثور عليه تحت جناحى الطائرة ، فى نفس اللحظة إذا بى أصيح :

— آه !

وأعتقد أنى لم أقل غير ذلك ، وأعتقد أنى لم أحس إلا صوت تصدع مروع حطم عالمنا من أساسه . لقد اصطدمنا بالأرض ونحن نسير بسرعة سبعين ومائتين كيلومتراً فى الساعة .

وأعتقد أنى لم أكن أنتظر شيئاً فى اللحظة التالية إلا أن أرى ذلك النجم الوردى الكبير ، نجم الانفجار الذى كنا على وشك الاختلاط به . ولم أشعر لا أنا ولا بريفو بأى اضطراب . ولم أكن أرى فى نفسى إلا انتظاراً لا حد له ، انتظاراً لرؤية ذلك النجم الوردى الكبير الذى كنا على وشك أن نغور فيه . ولكن لم يبد نجم ما ، وإنما حدثت زلزلة عظيمة اكتسحت قمرتنا وانتزعت النوافذ وأرسلت أجزاء الطائرة إلى مسافة بعيدة وملأتنا بزئيرها . وارتجفت الطائرة كأنها سكين غرس فى خشب صلد ، وهزنا ذلك الغضب هزاً شديداً . وانتظرت ثانية أو ثانيتين وأنا نافد الصبر ، انتظرت أن تنفجر الطائرة كالقنبلة ، ولكن الهزات الأرضية استمرت دون أن تؤدى إلى الثوران النهائى . ولم أفهم شيئاً مما كان يجرى ، لم أفهم شيئاً من تلك الزلزلة ، ولا من ذلك الغضب ، ولا من هذا التأخر الذى لا نهاية له ، ومرت خمس ثوان وست ثوان ثم أحسست فجأة بالدوران وبصدمة عنيفة ألقت سجائرنا خارج النوافذ وصيرت

الجناح الأيمن هباء منثورا . ثم أطبق السكون . وصحت قائلا لبريڤو :

— اقفز سريعاً .

وصاح هو فى نفس الوقت :

— النار !

وفى اللحظة ذاتها كنّا قد قفزنا من النافذة المنزوعة ووقفنا على بعد عشرين متراً ، وقلت لبريڤو :

— ألم يصبك أذى ؟

فأجاب :

— لا شىء !

ولكنه كان يحك ركبته .

فقلت له :

— افحص نفسك ، حركّ جسمك ، وأستحلفك أن تقول لى ما أصابك . . .

فأجابنى :

— لا شىء ، إنها مضخة الإنقاذ . . .

وظننت أنه سيقع فجأة وقد انشطر نصفين ، ولكنه كرر لى وهو ثابت الجنان :

— إنها مضخة الإنقاذ ! . . .

وظننتُ أنه جُنّ وأنه سيقع عما قليل .

ولكنه أدار بصره عن الطائرة التى نجت من الحريق ونظر إلىّ وهو يكرر القول :

— لا شىء ، لقد صدمت مضخة الإنقاذ ركبتى .

٣

من المحال أن يعلل المرء نجاتنا . وصعدتُ حاملا المصباح الكهربائى ومتتبعا أثر الطائرة على الأرض ، فوجدتُ ، على بعد خمسين ومائتى متر من الطائرة ، قطعا من الحديد الملتوى نثرتها الطائرة على الرمل . وسنعلم عندما يأتى النهار أننا اصطدمنا بسطح منحن انحناء خفيفا فى أعلى هضبة صحراوية ، وحدثت حفرة فى الرمال ، فى المكان الذى مست فيه الطائرة الأرض ، تشبه الحفرة التى يشقها المحراث ، وسارت الطائرة على بطنها دون أن تنقلب كأنها إحدى الزواحف الغاضبة تزحف بسرعة سبعين ومائتى كيلومتر فى الساعة . وإننا لمدينون بحياتنا من غير شك إلى هذه الأحجار السوداء المستديرة

التى تجرى على الأرض كالكرات ، فعليها انزلقت الطائرة .

ثم نزع بريفو المكثفات حتى لا يحدث حريق فيما بعد .

وكنت قد ارتكنت إلى محرك الطائرة وأعملت فكرى فرأيت أنى ربما أكون قد تعرضت أثناء طيرانى لرياح سرعتها خمسون كيلو مترا فى الساعة ، وقد حدث أن كانت الطائرة تضطرب من جرّاء الرياح ، ولكن إذا كانت الرياح قد غيّرت اتجاهها منذ التنبؤات الجوية الأولى فلن أعلم اتجاهها الجديد . وإذن فقد وقعنا فى مربع ضلعه أربعمائة كيلومتر .

وأتى بريفو فجلس إلى جانبى وقال :

— إنه لأمر خارق أن نبقى أحياء . . .

فلم أجبه بشىء ، ولم أشعر بأى فرح ؛ إذ كانت هناك فكرة صغيرة قد بدأت تشق طريقها فى رأسى وتقلقنى شيئا ما .

ورجوت بريفو أن يشعل مصباحه ليكون لى مَعْلما ، ثم سرت إلى الأمام ومصباحى الكهربائى فى يدى ، وأخذت أدقق النظر فى الأرض وتقدمت ببطء سائرا فى نصف دائرة كبرى ، ثم غيرت اتجاهى عدة مرات ، منقبا فى الأرض كأنى أبحث عن خاتم مفقود ، كما كنت أبحث منذ قليل عن شعلة الحياة ، وتقدمت فى

الظلام وأنا منحن على عمود الضياء الذى يلقيه مصباحى على الأرض . ولكن عبثا . . . فعدتُ إلى الطائرة وجلست قرب القمرة وأخذت فى التأمل . لقد كنت أنشد داعيا إلى الأمل فما وجدته ، وكنت أبحث عن إشارة من الحياة فما أرسلت لى الحياة إشارتها . وقلت لبريفو :

— لم أر أى أثر للعشب .

وصمتَ بريفو ولم أدر إذا كان قد فهم ما أعنيه . وسنتكلم فى ذلك عندما ترفع حجب الليل ، عندما يلوح الصباح . ولم أكن أشعر إلا بتعب عظيم . وتذكرت أننا فى صميم الصحراء ، فانتفضت واقفا وأنا أصيح :

— الماء !

كانت خزانات الوقود والزيت قد انفجرت ، وكذلك خزان الماء وابتلعت الرمال كل شئ ، ثم عثرنا على نصف لتر من القهوة فى قاع « ترموس » محطّم ، وربع لتر من النبيذ فى « ترموس » آخر فقطّرنا السائلين ومزجناهما معا ، وعثرنا أيضا على قليل من العنب وبرتقالة واحدة . وفكرت أن كل ذلك سينفد بعد خمس ساعات من السير فى شمس الصحراء .

ودخلنا إلى قمرتنا لننتظر حتى النهار . وتمددت وأوشكت

أن أنام. وحين بدأ النوم يغلبني حددت مركزنا فى هذه المخاطرة. فنحن هنا نجهل كل شىء عن مكاننا ، وليس معنا لتر كامل من السوائل . وإذا كنا على الطريق المباشر فسيجدوننا بعد ثمانية أيام ، وسيكون ذلك بعد فوات الأوان ، وليس لنا أن نأمل خيرا من ذلك . وإذا كنا قد سرنا عرضا فسيجدوننا بعد ستة شهور ، ولا يجدر بنا أن نعتمد على الطائرات فإنها ستبحث عنا فوق ثلاثة آلاف من الكيلو مترات .

وقال لى پريڤو :

— يا للأسف !

— لماذا تأسف ؟

— كان ممكنا أن ينتهى كل شىء مرة واحدة : . . .

كلا ، لا يجدر بالمرء أن يستسلم هكذا سريعا . لا يجدر أن نفقد الأمل — مهما قل — فى أن نُنقَذ بطريق الجو ، ولو بدا ذلك خارقا . ولا يجدر بنا أن نبقى فى مكاننا فلربما منعنا ذلك من الوصول إلى واحة قد تكون قريبة . وسنسير اليوم طيلة النهار ثم نعود إلى طائرتنا . وسنكتب قبل رحيلنا خطة السير على الرمال بحروف كبيرة .

وتكوّرتُ لأنام حتى الفجر . وكنتُ سعيدا جدا بهذا

النوم ؛ فقد شملنى التعب بعالم كنت أرى فيه العديد من الأشخاص ولم أعد إذن وحيدا فى الصحراء ، وتزاحمت علىّ ، وأنا نصف نائم ، أصوات وذكريات ومناجاة مهموسة . ولم أكن قد ظمئتُ بعد ، وكنتُ أشعر أنى فى حال طيبة ، وأسلمت نفسى للنوم كأنى أسلمها للمخاطرة . وتقهقرت الحقيقة أمام الحلم . . .

آه ، ولكن كم كان الأمر جد مختلف حين أصبح الصباح !

٤

لقد أحببتُ الصحراء حبا جمّا ، وقضيت بها ليالى فى الأراضى الثائرة . واستيقظت فى ذلك الفضاء الأقمر حيث تخلّف الرياح آثار تموجاتها كما تفعل بالبحر ، وانتظرت هنـاك العون وأنا نائم تحت جناح طائرتى ، ولكن هذا لم يكن ليُقارَن بما أنا فيه الآن .

وسرنا على سفوح الكثبان التى تغطّى رمالهـا طبقة من الحجارة اللامعة يخيل لرائيها أنها قشور معدنية . وكانت القباب المحيطة بنا تلمع كأنها دروع . لقد هبطنا فى عالم من المعـادن وأمسينا سجينى دنيا من جديد .

وما نكاد نعبر قمة حتى تلوح لنا على البعد قمة أخرى تشبهها فى سوادها ولمعانها . وسرنا ونحن نضرب الأرض بأقدامنا لنخلّف معالم تهدينا الطريق حين عودتنا ، وسرنا والشمس قُبُلنا . ولقد قررت السير شرقا ضد كل منطق ، فكل شىء ، سواء التنبؤات الجوية أو المدة التى قضيناها فى الطيران ، كان يجعلنا نؤمن بأننا قد تخطينا النيل ، ولكن سرت قليلا إلى الغرب فأحسست بهم .قلق لم أدر له سببا ، وحينئذ أرجأت الغرب لليوم التالى ، وضحيّت مؤقتا بالشمال ولو أنه يوصل للبحر . وحدث مثل هذا بعد ذلك بثلاثة أيام حين قررنا فى شبه جنون أن نترك نهائيا طائرتنا وأن نسير حتى الموت ؛ إذ اتجهنا أيضا ناحية الشرق أو بالضبط ناحية الشمال الشرقى ، وكان ذلك أيضا ضدّ أى سبب معقول وضد أى أمل فى النجاة . وعندما أنقذنا تبيّن لنا أن أى اتجاه آخر لم يكن يؤدى لنجاتنا . فلو سرنا شمالا لما استطعنا أن نصل البحر . ومهما بدا من حمق فى هذا الاختيار ، فإنى أعترف بأنى لم أختر ذلك الاتجاه — وأنا بلا معلومات تدعونى لترجيح جهة على أخرى — إلا لأنه الاتجاه الذى أوصل صديقى جيوميه إلى النجاة ، فى جبال الأنديز ، حيث طال بحثى عنه . فأصبح ذلك الاتجاه فى نظرى ، الطريق إلى الحياة .

وبعد خمس ساعات من السير تغيرت المناظر الطبيعية ، وبدا نهر من الرمال كأنه يجرى فى وادٍ ، وسرنا فى ذلك الوادى سراعا ؛ إذ كان علينا أن نذهب إلى أبعد ما يمكن ، وأن نعود قبل الليل إن لم نعثر على شيء . ثم توقفت وفجأة وصحت :

— يا بريڤو

— ماذا ؟

— الأثر . . .

فمنذ متى كنا قد نسينا أن نخلّف وراءنا مَعْلَماً يدلنا على طريق العودة ؟ إن لم نجد أثرنا فهلاكنا محقق .

وعدنا على أعقابنا ولكنا انحنينا إلى اليمين وانتوينا أن نبتعد بعدا كافيا ثم نسير فى اتجاه عمودى على اتجاهنا الأول لنتقاطع مع أثرنا

وما كدنا نتصل بذلك الأثر حتى عاودنا السير ، وأخذت الحرارة فى الازدياد ونشأت معها المسارب ، ولكنها ما زالت مسارب بسيطة ، وبدت لنا بحيرات كبيرة ثم أخذت تختفى كلما تقدمنا . وقررنا أن نعبر وادى الرمال ، وأن نصعد إلى قمة أعلى الكثبان حتى نشرف على الأفق . وكنا نسير منذ ست ساعات ، ولا بد أننا قد قطعنا خمسة وثلاثين كيلو مترا . ثم وصلنا قمة

الكثيب السوداء وجلسنا عليها فى صمت فرأينا وادى الرمال ، تحت أقدامنا ، يصب فى صحراء لا حجر فيها ، صحراء يأخذ سناها بالأبصار ، ثم يتلوها فضاء يمتد إلى مدى البصر . وأخذ الضوء يكوّن مسارب عند الأفق ، مسارب أكثر تعقيدا ، فرأينا قلاعا ومآذن وأشكالا هندسية ذات خطوط متعامدة ، ولاحظت أيضا بقعة سوداء كبيرة تشبه الخضرة ، وفوقها سحابة أخيرة من تلك السحب التى تذوب فى النهار وتولد فى الليل ، ولم تكن تلك الخضرة إلا ظلاّ لها .

لا فائدة فى السير أكثر من ذلك ، فما أدّت تلك المحاولة إلى شئ ، ولا بد من الرجوع إلى الطائرة ، ذلك المَعْلم الأبيض المشرب بحمرة ، والذى ربما استدلّ به الزملاء علينا . ومع أنى لم أكن أعلّق أى أمل على جدوى البحث عنّا ، إلا أنه كان الفرصة الوحيدة للنجاة . ثم إننا تركنا فى طائرتنا آخر قطرات بقيت لنا من السوائل ولابد لنا من شربها. لا بد من العودة لنحيا. إن أغلال العطش القصيرة لا تسمح لنا بالبعد أكثر من ذلك .

ولكن ما أشق الرجوع عندما يسعى المرء نحو ما قد يكون فيه حياة له ! فلربما عدَونا تلك المسارب إلى آفاق غنية بالمدائن الحقيقية وبقنوات الماء الزلال وبالمراعى الناضرة . إنى أعلم أن

هناك أسبابا تدعونى للعودة ولكنى رغم ذلك أحس أنى ذاهب إلى الفناء حين أعود .

وتمددنا قرب الطائرة . لقد سرنا أكثر من ستين كيلومترا ، وأنضبنا ما معنا من سوائل ، ولم نجد شيئا ناحية الشرق ، ولم يطر أى زميل فوق هذا المكان . فإلى متى نستطيع المقاومة ؟ لقد بدأنا نظمأ ظمأ شديدا . . .

وبنينا موقدا كبيرا من بقايا الجناح المحطم ، وأعددنا الوقود وصفائح المغنزيوم التى تعطى لهبا أبيض لامعا . وانتظرنا حتى يشتد سواد الليل لنوقد نارنا . . . ولكن أين من نوقد لهم هذه النار ؟

وصعدت اللهب فى الجو ، وتطلعنا إلى منارنا المشتعل فى الصحراء ، بخشوع وابتهال ، تطلعنا إلى رسالتنا الصامتة ، المشعة وهى تتوهج فى جوف الليل . وأعتقد أنها لو كانت تحمل نداء يثير العطف والرحمة فإنها تحمل أيضا حبا عظيما . إننا نطلب رِيا ولكننا نريد أيضا أن نتصل بالناس . فلتوقد نار أخرى فى هذا الليل ، فما يملك النارَ إلا الناس ، وليُجب الناس نداءنا !

ها أنذا أرى عيني زوجي ، ولن أرى شيئاً عداهما . إنهما تسألانني . ثم ها أنذا أرى عيون من يحبونني ، وكل تلك العيون تسألني . بَجْمَعٍ من الأبصار يأخذ عليّ صمتي . وإني لأجيبها جميعاً . أجيب وأجيب . أجيب بكلّ ما فيّ من عزم . فلن أستطيع أن أقذف في صميم الليل بشعلة أشد ضياء !

لقد فعلت ما استطعت . فعلنا مابوسعنا فسرنا حوالى ستين كيلومترا دون أن نرتوي . ولن نرتوي بعد الآن . فهل نأثم إذا كنا لانستطيع البقاء طويلا ؟ وكنا نستطيع أن نرضخ لصوت العقل وأن نبقى في مكاننا نمتص مامعنا من سائل ، ولـكني منذ انتهت آخر قطرة من السائل ، شعرت بآلة تتحرك بين جنبيّ فأخذت أهبط على منحدر . وماذا عليّ لو حملني الزمن كما يحمل النهر ؟ وبكى بريفو فربتُ على كتفه وقلت له لأهوّن عليه :

— إذا قُدّر لنا أن نموت فسنموت .

وأجابني :

— وهل تعتقد أني أبكي على نفسي . . .

نعم ، لقـد اكتشفتُ تلك الحقيقة الجليّة . فما من شيء لا يُحتمل . وسأعلم غدا وبعد غد أن لا شيء لا يُحتمل . وإني

لا أومن تماما بالعذاب . ولقد سبق لى أن فكرت فى ذلك . فقد ظننتُ ذات يوم أنى غارق ، وكنت سجين قمرتى فلم أتألم كثيرا . وحدث لى أن اعتقدت أحيانا أن رأسى سيتحطم ، ولم يبد لى ذلك بالأمر الجسيم . وهنا أيضا لن أعرف الهمّ والقلق . وسأعلم عن ذلك غدا أشياء أكثر عجبا . ويعلم الله إذا كنتُ قد يئست من أسماع صوتى للناس رغم ما أنا فيه من حُرقة ! . . .

« وهل تعتقد أنى أبكى على نفسى . . . » نعم ، نعم إن بكاءك على نفسك لهو الأمر الذى لا يُحتمل . وفى كل مرة تعاودنى فيها رؤية هذه العيون المنتظرة أشعر بحرقة الألم وتأخذنى رغبة مفاجئة فى النهوض والعدو إلى الأمام فهناك صيحات استغاثة ، هناك فُلك يغرق ، فلأجر نحوه !

إنه لقلب عجيب للأوضاع ، ولو أنى اعتقدت ذلك دائما ، إلا أنى كنتُ فى حاجة إلى كلمات بريفو لأتأكد تماما . نعم ، لن يعرف بريفو أبدا ، أمام الموت ، ذلك الهمّ المعذِّب الذى طالما سمعنا عنه . ولكن هناك شىء لن يستطيع بريفو تحمّله ولن أستطيع أنا تحمّله .

آه ! إنى لأرضى عن طيب خاطر أن أنام طيلة ليلة ، أو طيلة

قرون . فإنى إن نمتُ لن أدرى ما بينهما من فارق . وما أحلاه من سلام ! ولكن لا أستطيع تحمّل صورة الصيحات التى يصيحها القوم هناك ، لا أستطيع تحمّل حرقة ذلك اليأس القاتل الذى يستولى عليهم ، لا أستطيع أن أقف مكتوف اليدين أمام ذلك الفلْك الغارق . فكل لحظة من السكوت تصرع أولئك الذين أحبهم ، وحينئذ أحس غضبا عظيما يسرى بين جنبى . فلِمَ هذه الأغلال التى تعوقنى عن الوصول فى الوقت المناسب وتمنعنى إنقاذ أولئك الذين يغرقون ؟ ولِمَ لا تحمل نارُنا صرختنا المدوية حتى آخر الدنيا ؟ صبرا قليلا . . . سنصل . . . سنصل نحن المنقذين !

تَفَدَ المغنزيوم وأوشكت أن تخبو نارنا ولم يبق إلا قليل من اللهيب فانحينا عليه لنتدفأ . وانطفأت نيران رسالتنا المنيرة . فهل سيّرت شيئا نحونا ؟ إنى لأعلم تماما أنها لم تسيّر شيئا ما . لقد كانت صلاة لم تُستَجب .

فليكن ما يكون . وسأذهب لأنام .

٥

وعند الشروق مسحنا جناحي الطائرة بخرقة فجمعنا قليلا من الندى المختلط بالطلاء والزيت ، وكان مقززا ، ولكنا شربناه ؛ فهو خير من لا شيء وأقل ما في الأمر أنه ندّى شفاهنا .

وبعد تلك الوليمة الفاخرة قال لي پريڤو :

— معنا مسدّس ، لحسن الحظ .

فأحسست فجأة أني أصبحت مهاجما عنيفا والتفتُ نحوه بعداء شديد . فما كنتُ لأبغض شيئا حينذاك أكثر من إظهار العواطف الفياضة . كنتُ شديد الحاجة لأن أعتبر أنّ كل شيء بسيط . فإنه لشيء بسيط أن يُولد المرء ، وإنه لبسيط أن يكبر ، وإنه لبسيط أن يموت ظمأ .

ورنوت إلى پريڤو من طرف عيني وكنتُ مستعدا لأن أعتدي عليه ، لو اقتضى الأمر ، ليبوء بالصمت . ولكن پريڤو كلمني بهدوء كما لو كان يتكلم في موضوع صحي ، فكأنه كان يقول : « يجب أن نغسل أيدينا . » وإذن فنحن على وفاق . ولقد سبق لي أن فكرت في ذلك أمس عندما لمحت

الغمد الجلدى . وكانت آرائى عقلية وليست عاطفية . فليس هناك شخص عاطفى إلا بين الجماعة ، وكنت أفكر فى عجزنا عن بعث الطمأنينة فى نفوس من نحن مسئولون عنهم ، ولم أكن أفكر فى المسدس .

لم يكن البحث جاريا عنا طول ذلك الوقت ، أو على الأصح كان يبحث عنا فى مكان آخر ، وربما فى بلاد العرب . ومن ناحية أخرى ، لن نسمع صوت طائرة قبل الغد حين نكون قد هجرنا طائرتنا ، وسيدعنا عندئذ ذلك المعبر الفريد النائى ، سيدعنا وحيدين لايهتم بنا أحد . وليس لنا أن نتصور أن أحدا سيلمحنا فنحن إلا نقط سوداء مختلطة بآلاف النقط الأخرى فى الصحراء . وليس صحيحا ما سيحكى عما لاقيته من عذاب ، فلن أحمل أى عذاب . وسيبدو لى المنقذون فى كون آخر .

لابد من خمسة عشر يوما من البحث للوصول إلى طائرة لا يعرف عنها شىء ، على مدى ثلاثة آلاف كيلومتر ، ولربما كانوا يبحثون عنا من طرابلس حتى فارس . ورغم ذلك فقد احتفظت بذلك الأمل الشاحب ، فليس هناك أمل آخر . وغيرت الخطة ، فقررت أن أذهب بمفردى للاستكشاف . وسيعد

يبقو النـار ليوقدها إن زارنا أحد ، ولـكنا لن نزار .

فلأسر إذن وأنا لا أدرى إذا كنت سأقوى على العـودة .

وعاد إلى ذاكرتى ما أعلمه عن صحراء ليبيا . فدرجة الرطوبة بها ٤٠ ./. ولـكنها تهبط هنا إلى ١٨ ./. ، فتتبخر الحياة عندئذ . ويقول البدو الرّحل والمسافرون وضباط المستعمرات أن الانسان يستطيع البقاء تسع عشرة ساعة دون أن يشرب ، وبعد عشرين ساعة تمتلأ عيناه بالضياء وتبدأ النهاية السريعة .

ولـكن هذه الرياح الشمالية الشرقية ، هذه الرياح غير العادية التى خدعتنا رغم كل التنبؤات فألقت بنـا على هذه الهضبة ، هذه الرياح تطيل حياتنا الآن . ولـكن أى مهلة ستهبها لنا قبل ساعات الضياء الأولى ؟

فلأسر إذن ، ولـكن يخيل إلى أنى أركب قاربا استوى على المحيط .

ورغم ذلك فقد بدا لى المنظر أقل حزنا فى ضوء الفجر وسرت ويداى فى جيبى وكأنى سلاب . وكنا قد نصبنا شباكنا بالأمس على فتحة جحر لبعض الحيوانات التى تعيش تحت الأرض ، وبدأ الصياد ، الذى يسكن بين جنبى ، يستيقظ . وذهبت أولا لأفحص الفخاخ فألفيتها خالية .

لن أشرب إذن من دم تلك الحيوانات ، ولم أكن فى الحق أتوقع أن أجد شيئا .

وإذا لم يكن ظنى قد خاب كثيرا ، فإن عقلى قد أصابته الحيرة . فمن أى شئ تعيش هذه الحيوانات فى الصحراء ؟ إنها ثعالب رملية ، نوع من آكلات اللحوم فى حجم الأرانب ، ولها آذان ضخمة . لم أقاوم رغبتى فتتبعت أثر إحداها فوصلت إلى نهر رملى ضيق حيث كانت تبدو آثار الخطوات واضحة . وأعجبنى أثر ثلاث أصابع كأنها مروحة ، وتخيلت ذلك الحيوان يسير بخفة فى الفجر ويلعق الندى الساقط على الأحجار ، ثم تباعدت الآثار : أى أن الثعلب أخذ بعد ذلك يعدو . ثم أتى زميل لحق به وسارا جنبا إلى جنب . وهكذا تأملت بمرح غريب تلك النزهة الصباحية . وإنى لأحب تلك العلائم للحياة . وقد أنسانى ذلك ظمئى بعض الشئ

وأخيرا وصلت صوانات الطعام لتلك الثعالب . رأيت شجيرات فى حجم قدرة صغير ، تبرز من الأرض كل مائةخطوة وكانت سيقانها محملة بقواقع ضئيلة الحجم ذهبية اللون . وإذن فالثعلب يذهب ساعة الفجر إلى تلك الصوانات . وهنا اصطدمت بأحد أسرار الطبيعة . وإنه لسر عظيم

الثعلب لا يقف عند جميع الشجيرات . إنه يدع بعضها رغم أنه مُحمّل بالقواقع . ويدور حول بعضها باحتياط بيّن ويتناول طعامه من البعض الآخر ولكن دون أن يستنزفه ، فيأخذ منها قوقعتين أو ثلاث ، ثم يغير مطعمه .

فهل يريد الثعلب ألا يشبع جوعه مرة واحدة حتى يجعل لنزهته الصباحية لذّة أطول ؟ لا أعتقد ذلك . إن عمله يجرى وفقا لخطة لا بدّ منها . فلو أن الثعلب بَشِم من نتاج الشجرة الأولى ، إذن لأتى على حمولتها الحية فى أكلتين أو ثلاث ، ولسار من شجرة إلى شجرة فأفنى مؤونته . ولكن الثعلب يحاذر من إعاقة نمو القواقع وتكاثرها . ففضلا عن سيره إلى مائة من الشجيرات لتناول أكلة واحدة ، تراه لا يأخذ أبدا قوقعتين متجاورتين من غصن واحد . ويجرى كل شئ كما لو كان يدرى ما فى ذلك من خطر . فلو أنه فكّر فقط فى شبعه دون أن يحتاط ، لفنيت القواقع . ولو فنيت القواقع لانقرضت الثعالب .

وأوصلنى الأثر إلى جحر . فها هو ذا الثعلب وقد سمعنى من غير شك ، فروّعه زئير خطواتى . . . « أيها الثعلب ، لقد وقعتُ فى كارثة ولكن ذلك لم يمنعنى أن أهتم بمعرفة طبيعتك . . . »

وبقيتُ هناك متأملا . وبدا لى أن الإنسان يهيّئ نفسه ويكيّفها لكل حال . ولن يفسد بهجة المرء علمُه أنه هالك بعد ثلاثين من السنين أو بعد ثلاثة من الأيام . . . فليس الأمر إلاّ تغييرا للمكان الذى يتطلع منه الإنسان . . .

ولكن لا بد لنا من أن نتغاضى عن بعض الصور . . .

وواصلت طريقى ، ولكن بدأ بعض التحول يجرى فى نفسى من أثر التعب . فإذا لم تكن هناك مسارب ، اخترعتها . ثم ناديتُ :

— يا هوه !

ورفعت ذراعىّ وأنا أصيح ، ولكن ذلك الرجل الذى خُيّل إلىّ أنه يشير بيديه لم يكن إلا صخرة سوداء . وسَرَت الحياة إلى كل شئ فى الصحراء . . . أردت إيقاظ ذلك البدوى الراقد فإذا به ساق شجرة أسود . أهو ساق شجرة أسود ؟ لقد أدهشنى ذلك فانحنيتُ على الأرض وأردت رفع غصن محطم ، فإذا به من رخام ! فاعتدلت ودققت النظر فيما حولى فرأيت قطعا أخرى من رخام أسود . إنها غابات من عصور ما قبل الطوفان ، انتثرت سيقانها المحطمة على سطح الأرض . إذ انهارت منذ مائة ألف

من السنين كما تنهار كاتدرائية عظيمة هبت عليها فجأة عاصفة كونية فجعلتها كالعهن المنفوش ، حملت إلىّ العصور تلو العصور ، هذه القطع من العُمد الضخمة المصقولة كأنها ألواح الصلب ، هذه العُمد المزجّجة السوداء . واستطعت أن أميّز فيها عقد الغصون وأن ألمح جدائل الحيـاة وأحصى حلقات السوق . لقد كانت هذه الغابة مليئة بالطيور مفعمة بالموسيقا فأصابتها لعنة فإذا بها حجارة خرساء . وأحسست أن هذا المنظر الطبيعيّ عدو لى . . . هـذه الحجارة أشد سوادا من دروع التلال ، هذه اللُفافات العظيمة ترفض أن تلقانى . وماذا أصنع أنا الحىّ الفانى بين هذه الأحجار الخالدة ، أنا الفانى الذى سيذوب جسده ، ماذا أصنع هنا وسط الخلود ؟

قطعت منذ أمس حوالى ثمانين كيلومترا ، وهذا الدُوار الذى أعانيه يرجع للعطش أو للشمس . الشمس تلمع فوق السوق المنبسطة كالزيت الجامد ، إنها تلمع فوق هذه القشرة الكونية . . . ولم يبق هنا لا رمال ولا ثعالب ، لم يبق إلا سندان ضخم أسير عليه . وإنى لأحسّ دقات الشمس فى رأسى . آه ، ماذا هناك . . .

— باهوه !

— لا شىء هناك . لا تقلق نفسك . إنه الجنون ؟

وهكذا كنتُ أخاطب نفسى ؛ لأنى كنت فى حاجة لمشاورة عقلى ، وكان شاقا علىّ ألا أصدق ما تراه عيناى ، وكان شاقا علىّ ألا أجرى نحو تلك القافلة السائرة هناك . . . أتراها !

— يا لك من أحمق ، إنك تعلم تمام العلم أن تلك القافلة من اختراعك . . .

إذن لا حقيقة فى الدنيا . . .

لا حقيقة فى الدنيا ، اللهم إلا ذلك الصليب الذى ألمحه على بعد عشرين كيلو مترا . إنه صليب أو فنار .

ولـكن ليست هذه ناحية البحر . إذن فهو صليب . وكنت قد درست الخريطة طول الليل وكان عملى عديم الجدوى لجهلى موقعى . ولـكن كنت أنحنى على كل العلائم التى تدل على وجود الإنسان فاكتشفتُ دائرة صغيرة يعلوها صليب ، شبيه بهذا الصليب ، فرجعت إلى « البيانات » وقرأت فيها : « مؤسسة دينية » . ورأيت نقطة سوداء بجوار الصليب فرجعت إلى « البيانات » مرة أخرى وقرأت فيها : « بئر دائمة » . وأصابتنى صدمة عظيمة فى قلبى فعـاودت القراءة بصوت عال : « بئر دائمة . . . بئر دائمة . . . بئر دائمة . . . » وهل يُعدّ على بابا

وكنوزه شيئا مذكورا إذا ما قورن ببئر دائمة ؟ ورأيت أبعد من ذلك بقليل دائرتين ذات لون أبيض . وقرأت فى « بيانات » الخريطة : « بئر مؤقتة » . وكان ذلك أقل روعة . ولم يكن حول ذلك شىء ما .

فها هى ذى تلك المؤسسة الدينية وقد أقام الرهبان صليبا كبيرا فوق الكثيب ليهدى الغرق ؛ وليس علىّ الآن إلا أن أجرى نحو هؤلاء الدومينيكيون . . .

— ولكن ليس بصحراء ليبيا إلا أديرة قبطية .

— . . . فلأجر نحو هؤلاء الدومينيكيون النقاد . فلهم مطبخ لطيف الجو أحمر البلاط ، وفى فنائهم مضخة عجيبة صدئة ، وتحت المضخة الصدئة ، تحت المضخة الصدئة . . . ، إنك تستطيع أن تعرف ما تحتها . . . تحتها تجد البئر الدائمة ! آه سيقام حفل لديهم هناك عندما أدق على الباب ، عندما أدق الجرس الكبير . . .

— أيها الأحمق ، إنك تصف منزلا فى مقاطعة بروفنس ، وحتى ذلك المنزل لا تجد به جرسا .

— . . . آه عندما أدق الجرس الكبير ، سيرفع البوّاب ذراعيه إلى السماء ويصيح لى : « أنت مبعوث الله ! » ، وسينادى كلّ الرهبان ، وسيسرعون فيحتفون بى كما يحتفون بطفل

مسكين وسيدفعون بى إلى المطبخ وسيصيحون : « انتظر قليلا يا بنى . . . سنجرى بك إلى البئر الدائمة . . . »

وسأهتز سعادة وطربا . . .

كلا ، كلا ، لن أبكى لأنه لا صليب على التل . . .

لم تكن الآمال فى الغرب إلا أكاذيب . ولذلك اتجهت نحو الشمال تماما .

فالشمال ملىء على الأقل بأغانى البحر .

آه ، عندما أعبر هذه القمة ، سينبسط الأفق أمامى . وهاهى ذى أجمل مدن الدنيا .

— أنت تعلم تماما أنه سراب . . .

نعم أعلم تماما أنه سراب ولا يستطيع أحد خديعتى ! ولكن ما قولك إذا كان يحلو لى أن أصعد نحو ذلك السراب ؟ إذا كان يحلو لى أن أتفاءل وأن أحب تلك المدينة ذات القباب البارزة تزينها الشمس أجمل زينة ؟ ما قولك إذا كان يحلو لى أن أسير إلى الأمام بخطوات سراع لأنى لم أعد أحس التعب ، لأنى سعيد طرب . . . فليدعنى بريفو ومسدسه ، فليدعانى أضحك ! إنى أفضل هذا السكر . إنى ثمل . إنى أموت عطشا !

وأفاقني الغسق من سُكري ، فتوقفت فجأة هلعا لشعوري بذلك البعد . وفي الغسق يموت السراب وينضو الأفق ثوبه المرصع بالقصور والآبار والملابس الكهنوتية . إنه الآن أفق صحراوي .

— لقد تقدمتَ كثيرا ! وسيطويك الليل عما قليل فعليكَ أن تنتظر النهار ، وغدا سيكون أثرك قد انمحى فتتوه .

— إذن فلأستمر في السير إلى الأمام . . . فما جدوى الرجوع ؟ لم أعد أريد أن أغير اتجاهي فلربما أكون على وشك الوصول للبحر . . .

— وأين رأيت البحر ؟ لن تصله أبدا فثلاثمائة كيلومتر تفصلك عنه . وهناك بريفو بجوار الطائرة يرقب وينتظر ومن يدري لعل قافلة قد لمحته . . .

نعم سأعود ولكني سأنادي الناس قبل كل شيء :

— يا هوه .

يا إلهي إن هذا الكوكب عامر بالسكان . . .

— يا هوه ، يا ناس .

بُح صوتي ثم ذهب ، وأحسست السخرية في أن أصيح كذلك . . . ثم صحت مرة أخرى :

— يا ناس !

وكان لذلك الصوت رنين ادعاء وتصنّع .

ثم قفلتُ راجعا .

وبعد ساعتين من السير لمحت النيران التي أشعلها بريفو وقد أخذه الذعر فظنني قد تهت ، وأرسل تلك النيران ناحية السماء . آه إن ذلك لا يهمني . . .

ثم سرتُ ساعةً ، ثم خمسمائة متر ، ثم مائة متر ، ثم خمسين مترا . . .

— آه !

وقفتُ مبهوتا . سيفيض الفرح على قلبي ، ولكني تمالكت قواي . ها هو ذا بريفو يبدو في ضوء النار وهو مستند إلى الطائرة يتحادث مع أعرابيين . إنه لم يلمحني بعدُ فهو مشغول بفرحه عن كل شيء . آه لو أني انتظرت مثله . . . إذن لكنتُ الآن حرًّا طليقا !

وصحتُ بفرح :

— ياهوه !

فقفز الأعرابيان وتطلّعا إليّ وتركهما بريفو وتقدم بمفرده

أمامى وفتحت ذراعىّ فأمسكنى پريڤو من مرفقى وأنا وشيك السقوط وقلتُ له :

— وأخيرا ، لقد طابت الأحوال !

— ماذا تقول ؟

— الأعراب ؟

— أى أعرابٍ تقصد .

— هذان الواقفان هناك . . .

فنظر إلىّ پريڤو بعجب وأحسست أنه يُسر إلىّ على مضض بأمر جلل :

— لا أعراب هنا .

— سأبكى هذه المرة من غير شك . .

٦

يعيش المرء هنا تسع عشرة ساعة بلا ماء . وماذا شربنا نحن منذ أمس ؟ بضعة قطرات من الندى فى الفجر ! ولكن الرياح الشمالية الشرقية ما زالت تهب فتمنع تبخرنا شيئا ما ، كما أنها تساعد فى نفس الوقت على تكوين السحب . آه لو سارت تلك

السحب إلينا ، آه لو أمطرت السماء ! ولكن الدنيا لا تمطر أبدا فى الصحراء . وقلت لبريڤو :

— فلنقطع مظلة الهبوط على هيئة قطع مثلثة الشكل ولنثبت تلك القطع إلى الأرض بحجارة ، فإذا لم تتغير الرياح حتى الفجر استطعنا أن نجمع الندى بعد أن نعتصر القماش فى أحد خزانات الوقود .

وبسطنا ست قطع من ذلك النسيج الأبيض تحت النجوم ، ونزع بريڤو أحد خزانات الوقود . ولم يبق إلا أن ننتظر النهار .

واكتشف بريڤو برتقالة عجيبة بين حطام الطائرة فاقتسمناها ، وشعرت بانقلاب فى كيانى لهذا الحدث رغم أنها كانت شيئاً تافها بالنسبة لما نحن فى حاجة إليه ، إذ كان يلزمنا عشرون لترا من الماء .

وتمددت قرب النار ، وتطلعت إلى هذه الثمرة ذات الضياء وقلت لنفسى : « لا يعرف الناس قيمة برتقالة واحدة . . . » وقلت لنفسى أيضاً « لقد قضى علينا بالإعدام وهذا القضاء لم يمنعنى تذوق اللذة . فنصف البرتقالة هذا الذى أمسكه فى يدى قد حمل إلىّ مسرّة من أعظم مسرّات حياتى . . . » وتمددت على ظهرى وأنا أمتص البرتقالة وأعدّ النجوم الجارية . وكنت

سعيداً سعادة لا يحدها حد ، وناجيت نفسي مرة أخرى : «لا يستطيع أحد فهم هذا العالم الذي نحيا فيه إذا لم يعش في صميمه» . ولم أفهم إلا اليوم سر السيجارة وكوب الخمر اللذين يقدمان للمحكوم عليه بالإعدام . ولم أكن أظن أنه يقبل ذلك النصيب التافه ، ولكنه يقبله ويجد فيه مسرة عظيمة . ويتبسم ذلك الرجل الشجاع ، يتبسم لأنه يحتسي كوب خمر . أو لا نعلم أنه قد غير مكانه الذي يتطلع منه ، وأنه قد جعل من هذه الساعة حياة بشرية كاملة ؟

وجمعنا كمية كبيرة من الماء قد تبلغ اللترين . إذن فقد انتهى الظمأ ! ونجونا ، وسنشرب !

وملأت كوبا من الخزان ولكن ذلك الماء كان ذا لون أخضر جميل يضرب إلى الصفرة ، وقد وجدت طعمه شنيعا حتى اضطررت أن أتوقف لاسترد أنفاسي بعد الرشفة الأولى ، وذلك رغم العطش الذي كنت أقاسيه . كنت مستعدا أن أشرب طينا ولكن ذلك الطعم المعدني السام كان أقوى من ظمأي .

ورنوت إلى بريفو فوجدته يدور حول نفسه وعيناه إلى الأرض كأنه يبحث بعناية عن شيء فقده . ثم انحنى فجأة وتقيأ

دون أن ينقطع عن الدوران ، وبعد ذلك بنصف دقيقة جاء دوري وأخذتني رعدة شديدة حتى أني كنت أتقيأ راكعا على ركبتيّ وأصابعي في الرمال . ولم يكلم أحدنا الآخر وبقينا مضطربين هكذا طيلة ربع ساعة حتى لم نعد نفرغ إلا قليلا من الصفراء .

ثم انتهى كل شيء ولم أعد أحس إلا شمأزيزة بعيدة . ولكن أملنا الأخير قد ذهب . وما كنت أدري سبب ذلك ، أهو طلاء قماش المظلة أم بقايا الوقود المحترق العالقة بالخزان ؟ كان لابد من وعاء آخر أو قماش آخر .

فلنسرع لقد أتى النهار . هيا بنا نهرب من هذه الهضبة اللعينة . سنسير بخطوات سريعة حتى الموت . إني أتبع خطة جيوميه في الأنديز وأفكر فيه كثيرا منذ أمس . وسأخرق القاعدة التي لابد منها وهي البقاء بجوار الطائرة ؛ إذ لن يبحث أحد عنا في هذا المكان .

واكتشفنا مرة أخرى أننا لسنا الغرقى ، وإنما الغرقى هم الذين ينتظرون ! أولئك الذين يهددهم سكوتنا ويمزقهم خطأ شنيع ، ولايسعنا إلا أن نجري نحوهم . وحدث نفس الأمر لجيوميه ، فقد قص عليّ أنه هو الذي كان يجري نحو الغرقى ! وتلك حقيقة عامة .

وقال لى بريڤو :

— لو كنت وحيدا فى هذه الدنيا لتوقفت ونمت .

وسرنا إلى الأمام فى اتجاه الشمال الشرقى ، فإذا كنا قد اجتزنا النيـــل ، فإن كل خطوة نخطوها تلقى بنا فى أعماق الصحراء العربية .

ولم أعد أذكر شيئاً عن ذلك النهار اللهم إلا إسراعى نحو أى شىء ، إسراعى نحو الموت . وأذكر أيضاً أنى كنت أسير متطلعاً إلى الأرض إذ كنت متقززا من رؤية السراب . وكنا نقوّم اتجاهنا من وقت لآخر مستعينين بالبوصلة ، وكنا نتمدد أحيانا لنسترد أنفاسنا المبهورة . وتركت غطائى المصنوع من المطاط فى مكان ما ، ولم أكن أدرى أكثر من ذلك . ولم تـكن ذكرياتى تتجدد وتتصل ببعضها إلا فى نسم المساء . كنت كالرمال ، وأنمحى كل شىء من نفسى .

وقررنا عند غروب الشمس أن نخيم لنستريح . وكنت أعلم تماما أن علينا مواصلة السير ، فلو قضينا الليلة بلا ماء لذهبت ريحنا . ولـكنا قد أحضرنا معنا قطعا من قماش مظلة الهبوط ، فإذا لم يكن سبب التسمم من طلاء القماش فلربما استطعنا أن نشرب فى

صباح الغد . ولابد أن نبسط هذه الأشراك للندى ، مرة أخرى ، تحت النجوم .

ولكن السماء خالية من السحب فى الشمال ، ولكن طعم الرياح قد تغير ، وتغير اتجاهها أيضا ومستنا فعلا أنفاس الصحراء المحرقة . لقد استيقظ الوحش ! وهاأنذا أشعر به يلعق يدىّ ووجهى . . .

ولكنى إذا وصلت السير فلن أقطع أكثر من عشرة كيلومترات . لقد قطعت فى ثلاثة أيام أكثر من مائة وثمانين كيلومترا وذلك دون أن أشرب . . .

ولكن فى اللحظة التى توقفنا فيها ، صاح پريڤو :

— أقسم لك أنها بحيرة .

— إنك لمجنون !

— وهل ممكن أن يكون هذا سرابا فى هذه الساعة ، ساعة الغسق ؟

فلم أجبه بشئ إذ أنى لم أعد أصدّق عينىّ . ربما لا يكون سرابا ، ولكنه يكون عندئذ اختراعا سبّبه ما أصابنا جنون . وكيف يبقى پريڤو إلى الآن وهو يعتقد ذلك ؟

وصمم پريڤو على رأيه .

— إنها على بعد عشرين دقيقة وسأذهب لأراها .

وضايقنى ذلك العناد فقلت له :

— اذهب ، اذهب لتشم الهواء ففى ذلك صحة لك . ولكن إذا كانت بحيرتك موجودة فثق أنها بحيرة مالحة . مالحة أو غير مالحة ، إنها بحيرة لعينة . ومع كل ذلك فلا وجود لها إطلاقا .

وابتعد بريڤو وهو ثابت العينين . وإنى لأعرف هذه الأشياء ذات الجاذبية المسيطرة ! وفكرت مناجيا نفسى :

« هناك أيضا قوم مصابون بنوم اليقظة يلقون بأنفسهم تحت عجلات القطار » . إنى أعلم أن بريڤو لن يعود ، فسيستولى عليه « دوار الفضاء » ولن يستطيع العودة وسيقع بعيدا عنى ويموت فى ناحية وأموت أنا فى ناحية أخرى . وليس لكل هذا إلا أهمية قليلة ! . . .

ولم أجد فى عدم مبالاتى هذه فألا طيبا ، فلقد شعرت بنفس هذا السلام عندما أوشكت على الغرق ذات مرة . ولكنى انتهزت الفرصة لأكتب خطابا وأنا منبطح على الحجارة . وسيكون خطابى جميلا عظيما . وأفضت فيه الكثير من النصائح الحكيمة . وشعرت وأنا أعيد قراءته بسرور غامض لعله سرور الغرور .

وسيُقال عن هذا الخطاب : « إنه لخطاب عظيم ! ويالها من خسارة أن يموت كاتبه ! »

وكنتُ أريد أن أعرف حالتي بالضبط ، فحاولتُ أن أكوّن بعض اللعاب في فمي فلم أستطع إذ لم يبق لديّ شيء من اللعاب . وكلما أبقيت فمي مُغلقا تكونت مادة غراوية تلصق شفتيّ ثم تجمد وتكوّن كتلة صغيرة . ورغم ذلك فقد نجحتُ في أن « أبلع ريقي » . ولم تكن عيناي قد امتلأتا بعدُ بالضياء ، وعندما يعرض لي هذا المشهد المُشع فسيبقى أمامي ساعتان .

جنّ الليل واتسق القمر وكبر عن الليلة السابقة ، ولم يعد بريقو . وكنت متمددا على ظهري أفكر في تلك الأمور البيّنة ، فوجدت في نفسي شعورا قديما غامضا ، وأخذت أبحث لأحدده ولأضع له تعريفا ، فأنا . . . أنا . . . أنا على ظهر فُلْك ! في إحدى رحلاتي إلى أمريكا الجنوبية كنتُ متسلقيا هكذا على ظهري في شرفة المركب العليا ، وكان طرف السارية يجول بطيئا طولا وعرضا ، وسط النجوم . . . وهنا في الصحراء فينقصني مثل ذلك الساري ، ولكني رغم ذلك على ظهر فُلْك يحملني إلى مصير لا يدَ لي فيه . لقد ألقى بي بعض تجار الرقيق ، مشدودَ الوثاق ، على ظهر هذا الفُلْك .

وفكرت في بريقو ، ماله لا يعود . ما سمعته مرة واحدة يشكو ، وإنه لشيء طيب فما كنت لأحتمل الأنين والشكوى . إن بريقو لرجل حقا .

آه ! هاهوذا على بعد خمسمائة متر ، هاهوذا يحرك مصباحه ! لقد فقد الأثر ، ولا مصباح لدى لأرد عليه ، فنهضت وصحت ولكنه لم يسمع . . .

واوقد مصباح آخر على بعد مائتى متر من مصباح بريقو ، ثم مصباح ثالث . يا إلهى ! ما هذا ، إنهم يبحثون عنى :

وصحت :

— يا هوه !

ولكن لم يسمعنى أحد .

وواصلت المصابيح الثلاثة إرسال إشاراتها .

لستُ مجنونا هذا المساء ، وأشعر أنى فى حال طيبة وأنى فى سلام نفسانى . وتطلعتُ بانتباه فرأيت ثلاثة مصابيح على بعد خمسمائة متر ، وصحت :

— يا هوه .

ولكن لم يسمعنى أحد .

عندئذ استولى على فزع قصير الأمد ، وإنه الفزع الوحيد الذى

سأشعر به . كان ما زال فى مقدورى أن أجرى ولـكنى قلت لنفسى : « انتظر ، انتظر » سيرجعون ! سيبتعدون ويبحثون فى مكان آخر ، وأنا سأخرّ صريعا ! سأخرّ صريعا وأنا على عتبة الحياة ، وأنا ألمح الأذرع تمتد لعناق !

— يا هوه ، يا هوه .

— نعم ، نعم !

لقد سمعونى. بُهرت أنفاسى ، بُهرت أنفاسى ولـكنى مازلت أجرى ، أجرى فى اتجاه الصوت وأنادى . ولمحتُ بريڤو ثم وقعت على الأرض .

— عندما لمحت كل هذه المصابيح ! . . .

— أية مصابيح ؟

حقاً ، لقد كان بريڤو وحيدا .

فى هذه المرة لم أستشعر أى يأس ولـكنى أحسست غضباً أخرس .

— وبحيرتك ؟

— كانت تبتعد كلما تقدمت ولقد سرتُ نحوها لمدة نصف ساعة ثم صارت بعيدة جدا فعدت . ولـكنى متأكد الآن أنها بحيرة . . .

— أنت مجنون ، مجنون جدا . لِمَ فعلت ذلك ؟

ماذا فعل ؟ ولِمَ فعل ذلك ؟ كنتُ شديد الغضب ولا أدرى لماذا . وأوضح لى بريڤو المسألة فقال بصوت مختنق :

— كم كنتُ أتمنى أن أجد رِيّا . . . إن شفتيك شديدتا البياض !

هدأ غضبي . . . ومررت بيدى على جبهتي كما لو كنتُ أستيقظ من النوم وشعرت بالحزن وأخذت أقص :

— رأيت ، كما أراك الآن ، رأيت بوضوح لا يشوبه أى خطأ ثلاثة مصابيح . . . أقول لك إنى رأيتها يا بريڤو

وصمتَ بريڤو أول الأمر ولكنه اعترف أخيرا فقال :

— نعم لقد ساءت حالنا .

تفقد الأرض حرارتها بسرعة فى هذا الجو الخالى من بخار الماء . ولقد أمسى الجو شديد البرودة . نهضتُ وسرتُ ولكن أخذتنى رعدة لا تحتمل ؛ إذ أن دمى قد نضب ما فيه من ماء فأصبح لا يجرى بنظام . واخترق جسدى برد مثلج ولم يكن بردَ الليل فحسب . واصطكت أسنانى وانتفض جسدى كله انتفاضا ولم أعد أستطيع استخدام المصباح الكهربائى لشدة ارتجاف

يدى . لم أكن أبدا شديد الحساسية بالبرد ولكن هأنذا على وشك الموت بردا ، فياله من أثر للعطش عجيب !

لقد تركت غطائى المطاط فى مكان ما إذ تعبتُ من حمله فى ذلك الجو الحار ، ثم تغيرت الرياح وساءت شيئا فشيئا واكتشفت ألا ملجأ فى الصحراء فهى ملساء كقطعة من الرخام لا تظلك نهارا ولا تحميك من البرد ليلا . فلا شجرة ولا عريش ولا حجر يحمينى . وهاجمتنى الرياح كأنها فرسان مقاتلة فى بطحاء عارية من كل شىء ، وجعلت أمشى على هيئة دائرة لأهرب منها ثم تمددت ثم نهضت . وسواء نمت أو وقفت فلقد كنت فى الحالين معرضا لسياطها المثلجة . لم أكن أستطيع الجرى فلم تعد لى قوة على ذلك ، ولم أستطع الهرب من أولئك القَتَلة ، ووقعتُ على ركبتىّ ورأسى بين يدىّ فى الرمل !

فهمتُ المسألة بعد ذلك بقليـل . كنتُ قد نهضتُ وسرت للأمام وأنا دائم الارتجاف ! فأين أنا الآن ؟ آه ، لقد سرتُ منذ قليل وهأنذا أسمع صوت پريفو ولقد أيقظنى نداؤه . . .

فعدتُ نحوه ومازالت هذه الرعدة وهذا الانقباض يهزاننى وقلتُ لنفسى : « ليس هذا أثر البرد . إنه شىء آخر . إنه النهاية . »

لقد ذهب الكثير مما فى جسمى من ماء فقد مشيت كثيرا أول أمس وأمس عندما كنت أسير وحيدا

وآلمنى أن تكون نهايتى بسبب البرد . وكنت أفضل السراب ، أفضل ذلك الصليب وأولئك الأعراب وتلك المصابيح ؛ فقد انتهيت إلى أن وجدت فيها شيئا أهتمّ به . أنا لا أحب أن أجلد بالسياط كالرقيق . . .

وهأنذا أجثو على ركبتىّ مرة أخرى .

كنّا قد حملنا معنا بعض الدواء . مائة جرام من « الأثير » ومائة من الكحول درجة ٩٠ وزجاجة من اليود . فحاولت شرب جرعتين أو ثلاث من الأثير النقى فكنت كأنى أبتلع سكينا . ثم حاولت شرب قليل من الكحول ولكنه سدّ حلقى .

وحفرت حفرة تمددتُ فيها وغطيت نفسى بالرمال ولم يكن يبرز إلا وجهى . ووجد بريفو بعض الحشائش الجافة فأوقد نارا سرعان ما ذَوَى لهيبها . ورفض أن يدفن نفسه فى الرمل وفضل أن يقف محرّكا رجليه ، وإنه لمخطئ .

وبقى حلقى مقفولا ، وإن ذلك لنذير مشؤوم . ورغم هذا فقد كنت أحس أن حالى قد تحسنت وشعرت بهدوء يفوق كل ما يُرجى .

كنتُ مقهورا على السفر فى سفينة تجار الرقيق ، وكانت السفينة تجرى تحت النجوم ولكنى لم أكن شديد البؤس . . .

لم أعد أحس البرد على شرط ألا أحرك أى جزء من جسمى ثم نسيت جسدى الراقد تحت الرمال . لن أتحرك ولن أتألم . وفى الحق أن الألم الذى يعانيه المرء لقليل ؛ فوراء هذه الآلام ينسجم التعب والجنون ويتحول كل شئ إلى كتاب من صُوَر أو إلى قصة من قصص الجان ، قصة قاسية شيئا ما . . . فمنذ قليل كانت الرياح تطاردنى وكنت أدور كالحيوان لأهرب منها ، وإذا أردت التنفس عانيت الألم كأن قوة تضغط على صدرى وكنت أجاهد ضد كل تلك القوة . . . ولم أكن قط وحيدا بالصحراء . وأمسيت الآن لا أعتقد فى شئ مما يحيط بى ، ولهذا اعتكفت داخل نفسى وأغمضت عينى وبقيت جامدا لا أرمش . وأحسست بهذا الفيض من الصور يحملنى نحو حلم هادئ كما تحمل الأنهار مياهها الصاخبة فتهدأ فى أعماق البحر .

وداعاً يا من كنت أحبهم . ليس علىّ إثم إذا كان الجسم الإنسانى لا يتحمل البقاء ثلاثة أيام بلا ماء . ما اعتقدت قط أن الإنسان سجين الماء ، على هذه الصورة . ولا ظننتُ أن حريته مقيدة بهذا القيد . يعتقد المرء أنه يستطيع الذهاب أنى شاء ،

ويعتقد أنه حرّ ولا يرى الحبل الذي يوثقه بالبئر ، الحبل الذي يربطه ببطن الأرض كأنه حبل سُرّي ، فإذا سار خطوة أكثر من اللازم خرّ صريعا .

لن آسف على شيء إلا على آلامكم أيها الأحباء . ولو أحصينا كل شيء لوجدتموني صاحب النصيب الأوفى . وإذا رجعت لكم فسأعاود الطيران ؛ ذلك أني في أشد الحاجة لأن أحيا ولم تعد في المدن حياة إنسانية .

وليست المسألة هنا مسألة الطيران فما الطائرة إلا وسيلة ، إنها ليست غاية . ولا يعرّض المرء حياته للخطر من أجل الطائرة كما أن الفلاح لا يحرث الأرض من أجل المحراث . ولكن الطائرة تجعلنا نودّع المدن ومن فيها من الموظفين الكتابيين ونلقى تلك الحقائق الريفية التي فقدناها .

وفي الطيران يعمل المرء عمل الرجال ويعرف هموم الرجال ، ويتصل بالرياح والنجوم والليل والرمال والبحر . ويجرّب خدعه ضد قوى الطبيعة وينتظر الفجر كما ينتظر البستاني الربيع ، وينتظر محطة الطيران كأنها أرض الميعاد ، ويبحث عن الحقيقة بين النجوم .

لن أشكو أبدا . فمنذ ثلاثة أيام وأنا أسير ولقد أصابني الظمأ ولقد تقصصت الأثر ، وجعلتُ من الندى أقصى آمالي ، وجاهدت

لأتصل بالإنسان ، وكنت قد نسيت طريق مسكنه على وجه الأرض وتلك هموم من يحيون ولا يمكنني أن أعدها أقل أهمية من اختيار ملهى بإحدى المدن فى المساء

لم أعد أفهم قيمة أولئك النـاس الذين يملأون قطارات الضواحى ، أولئك الرجال الذين يحسبون أنفسهم رجالا أحرارا وما هم إلا لعبة فى يد العُرف الذى يسيرهم ، إنهم كالنمل ولـكنهم لا يحسُّون ذلك . وكيف يقضى أولئك الناس إجازات الأحد التى لا طعم لها ؟

سمعت مرة فى أحد المصـانع بالروسيا عزفا لمقطوعات موزارت . ولقـد كتبت عن ذلك مرة فوصلنى مئات من رسائل السب . وأنا لا أحقد على من يفضلون موسيقى الحانات فهم لا يعرفون سواها ، وإنما أحقد على صاحب الحان فأنا لا أحب من يفـسدون الناس .

وأنا سعيد فى مهنتى ، وأشعر وأنا أجول بين محطات الطيران أنى أجول فى قريتى . وإنى لأشعر بموتى فى قطار الضواحى أكثر مما أشعر به هنا . وإذا صفّيتُ الحساب الآن وجدتنى قد فزت من الحياة بالنصيب الأوفى ! . . .

لست بآسف على شيء ، لقد لعبت وخسرت ، وذلك يتفق وطبيعة مهنتي . ولكني قد عرفت رياح البحار واستنشقتها .

ومن ذاق ذلك القوت مرة واحدة لا ينساه أبدا . أليس كذلك يا رفاق ؟ . . . ليست المسألة أن تعيش في خطر فهذا كلام دَعِيّ . وأنا لا أعجبُ بمصارعي الثيران . وليس الخطر هو ما أحب ، أني أعرف ماذا أحب ، إنها الحياة .

خُيلّ إلى أن السماء ستبيضّ عما قليل . وأخرجتُ ذراعي من الرمل إذ كانت هناك قطعة من القماش في متناول يدي لجستها ولكنها كانت لا تزال جافة . فلننتظر فالندى يسقط مع الفجر . ولكن الفجر لاح ولما يبتل القماش . عندئذ اضطربت أفكاري قليلا وأخذت أقول : « هنا قلب نضب معينه ، نضب معينه فلم يعد يستطيع البكاء ! »

— فلنرحل يا بريفو ! لم تُغلق حلوقنا بعد فيجب أن نسير .

٧

ما زالت رياح الغرب تهب ، تلك الرياح التى تجفف الرجل فى تسع عشرة ساعة . لم يُقفل حلقى بعدُ ولكنه جاف مؤلم ، وقد بدأت أحس فيه شيئا جامدا وعما قليل سيبدأ ذلك السعال الذى وصفوه لى والذى أنتظره الآن . . . وأصبح لسانى يضايقنى ولكن الأخطر من ذلك أنى بدأت ألمح نقطا لامعة . وعندما تستحيل تلك النقط لهيبا فسأنام إلى الأبد .

وسرنا سراعا منتهزين نسيم الفجر ؛ إذ كنا نعلم تماما أننا لن نستطيع السير عندما تشتد الشمس . فليس لنا الحق أن نفقد أى ماء بالعرق ، وليس لنا الحق أن ننتظر . وليس هذا النسيم نسيما بالمعنى المقصود فهو نسيم يحتوى على ٠.١٨٪ من الرطوبة . وهذه الريح تهب من الصحراء ، فوراء عطفها الزائف يتبخر ما فى أجسادنا من ماء .

لقد أكلنا قليلا من العنب فى اليوم الأول وأكلنا نصف برتقالة ونصف كعكة فى ثلاثة أيام . ولو وجدنا الآن طعاما فبأى لعاب نمضغه ؟ ولكنى لا أحس أى جوع وإنما أشعر بالعطش .

وأشعر بشيء غير العطش هو نتيجة العطش ، فأحس بحلقي وقد جمد ولساني وقد تصلب ، وأحس طعما شنيعا في فمي ، وإنها إحساسات جديدة عليّ وسيشفيها الماء من غير شك ، ولكن ليس لدي من الذكريات ما يجمع بين تلك الإحساسات وبين الدواء الذي يشفيها ، وأصبح العطش مرضا ولم يعد رغبة .

ويُخيل إليّ أن صور الينابيع والفواكه قد أضحت أقل إيلاما لنفسي ، وأخذت أنسى لذة البرتقالة وذلك الإشعاع الذي كان ينبعث منها . ويخيل إلي أيضا أني قد نسيتُ كل ما كنت أحبه . وربما أكون قد بدأت في نسيان كل شيء .

وجلسنا لنستريح ولكن لا بد من معاودة السير ، ولم نعد نفكر في قطع مسافات طويلة ، فبعد أن نسير خمسمائة متر نسقط من الإعياء . وشعرت بلذة عظيمة وأنا أتمدد لأستريح . ولكن لا بد من معاودة السير .

وبدأت المناظر الطبيعية تتغير وأخذت الأحجار تتباعد ثم صرنا نسير على الرمال وبدت على بعد كثبان عليها آثار بعض الخضرة . وإني لأفضل هذا الرمل على تلك الدروع الحديدية التي كنا نسير بينها آنفا . إنها الآن الصحراء الشقراء ، إنها الصحراء الحقيقية وأظن أني أعرفها . . .

سنفنى بعد مائتين من الأمتار ، ولكن لا بد من أن نسير رغم ذلك حتى نصل على الأقل إلى تلك الشجيرات .

وذلك هو الحد الأقصى . ولكنا سنعلم بعد ذلك بثمانية أيام عند عودتنا بالسيارة ، وسيرنا على آثارنا للبحث عن الطائرة ، سنعلم أننا قطعنا فى تلك المحاولة الأخيرة مسافة ثمانين كيلومترا . وكنت قد اجتزت ما يقرب من مائتى كيلومتر . فكيف نستطيع مواصلة السير ؟

بالأمس كنت أمشى بلا أمل ، واليوم فَقَدتْ هذه الكلمة معناها . اليوم نمشى لأننا نمشى كالثيران ساعة الحرث . وبالأمس كنتُ أحلم بجنان فيها أشجار البرتقال ، واليوم لم يعد هناك جنة إطلاقا ، بل لم أعد أعتقد بوجود البرتقال

ولم أعد أكتشف أى شئ فى نفسى اللهم إلا جفافا عظيما فى القلب . أنا على وشك الموت ولكنى لا أعرف اليأس . وحتى الألم لا اعرفه. وإنى لآسف على ذلك ؛ فإنى أعتقد أن الألم لو أتانى لكان حلوا كالماء ، فإن المرء يرثى عندئذ لنفسه ويشكو إلى نفسه كما لو كان يشكو لصديق عزيز. ولكن لم يعد لى فى الدنيا صديق .

وعندما يعثرون علىّ ، فيرون عيناى وقد احترقتا ، عندئذ يظنون أنى استغثتُ كثيرا وأنى تألمت كثيرا . ولكن المشاعر

والأسف والآلام ، كلها تكوّن ثروات عظيمة . ولم يعد لى شئ من تلك الثروات . فالفتيات الناضرات يعرفن الألم ويبكين فى مساء حبهن الأول . والأمل متصل بكل نبضة من نبضات الحياة . وأنا لم يعد لى نصيب من ذلك الألم . . .

الصحراء ، لقد أصبحتُ كالصحراء . لم أعد أكوّن شيئا من اللعاب ولم أعد أكوّن شيئا من الصور الحلوة التى كنت أستطيع مناجاتها والشكاية لها . لقد أنضبت الشمس معين دموعى .

ورغم كل ذلك ، فما هذا الذى ألمحه ؟ ريح من الأمل تمر على كما تمر العاصفة على البحر . فما هى الإشارة التى عرفتها بالغريزة قبل أن أعرفها بالعقل ؟ لم يتغير شئ ، ورغم ذلك فقد تغير كل شئ . فهذا الفراش الرملى ، وهذه الكثبان وهذه البطاح لم تعد منظرا من مناظر الطبيعة ، وإنما أضحت مشهدا من مشاهد الحياة وإن كان ما زال ينقصه من يلعبون الدور . إنه مشهد معدّ مهيء . ورنوت إلى پريڤو فرأيته قد اصيب بنفس الدهشة التى أصابتنى وهو أيضا لا يفهم شيئا فيما يحسه .

أقسم لك أن شيئا على وشك الحدوث . . .

أقسم لك أن الروح سَرَت فى الصحراء . أقسم لك أن هذا

الغياب وهذا السكون قد أصبحا فجأة أشد تأثيرا من ضجة فى أحد ميادين المدينة . . .

لقد نجونا ؛ فها هى ذى بعض المعالم على الأرض ! . . .

كنا قد فقدنا أثر الانسان ، وانفصلنا عن الجماعة البشرية ، وأضحينا فريدين فى الدنيا ، هاجر السكون جميعه وتركنا هنا ، وها نحن أولاء نكتشف أقدام الانسان العجيبة مطبوعة على الرمال .

— هنا ، يا بريفو ، هنا افترق رجلان .

— هنا ، أناخ بعير .

— هنا . . .

ورغم ذلك فلم تتم نجاتنا بعدُ ، فبعد بضع ساعات لن يستطاع إنقاذنا ، وإذا بدأ سعال العطش فسيحين حيننا وشيكا . وحلقانا . . . ولكنى أومن بتلك القافلة السائرة هناك فى مكان ما من الصحراء .

وعلى ذلك سرنا ، ثم سمعتُ فجأة صياح الديك وكان جيوميه قد قال لى : « قرب النهاية كنت أسمع ديكة تصيح فى جبال الأنديز . وكنتُ أسمع أيضا أصوات قطارات . . . »

ذكرتُ حديثه حين سمعت غناء الديك ، وقلت لنفسي : « لقد خدعتني أولا عيناى وكان ذلك نتيجة العطش ، أما أذناى فقد استطاعتا أن تقاوما أكثر . . . » ولكن بريفو أمسكني من ذراعي وقال :

— أسمعتَ ؟

— ماذا ؟

— الديك .

— إذن . . . إذن . . .

إذن فهي الحياة ، هي الحياة .

ثم رأيت رؤية كاذبة للمرة الأخيرة : رأيت ثلاثة كلاب يتتابعون . ولم ير بريفو شيئا من ذلك مع أنه كان يدقق النظر ولكن ها نحن الاثنين نمد أذرعتنا إلى ذلك البدوى ، ها نحن الاثنين نبذل كل ما فينا من جهد لنُسمعه أصواتنا ، ها نحن الاثنين نضحك من السعادة ! . . .

ولكن أصواتنا لا تصل إلى أبعد من ثلاثين مترا ؛ فلقد جفت حبالنا الصوتية . وكنا نكلم بعضنا بصوت منخفض ولم نكن قد لاحظنا ذلك .

ولكن هذا هو البدوى وهذا هو بعيره قد لاحا منذ قليل

من وراء الكثيب ، وأخذا الآن يبتعدان ويبتعدان ببطء . ولربما كان هذا الرجل وحيداً . فأى شيطان قاس أظهره لنا ثم أخذ يسترده . . .

ولن نستطيع الجرى !

ثم لاح لنا عربى آخر على الكثيب ، وصرخنا ، ولكن كان صوتنا منخفضا ، فحركنا أذرعتنا وخيل إلينا أننا نملأ السماء بإشارات عظيمة ، ولكن ذلك البدوى كان دائم التطلع إلى ناحية أخرى ، إلى ناحية اليمين . ثم بدأ يدير رأسه ببطء . . . وفى اللحظة التى سيواجهنا فيها سيتم كل شىء . فى اللحظة التى سيتطلع إلينا فيها سيمحو منا العطش والموت والسراب . لقد أدار رأسه فغير الدنيا ، وبحركة واحدة ونظرة واحدة أرجع لنا الحياة ، وبدا لى كأنه إله . . .

إنها لمعجزة . . . ها هو ذا يسير نحونا على الرمال كما يسير إله على البحر . . .

ونظر إلينا العربى وضغط بيديه على أكتافنا فأطعناه وتمددنا . هنا لا أجناس ولا لغات ولا خلافات . . . هذا البدوى الفقير يضع يديه على أكتافنا كالملاك .

وانتظرنا وجباهنا فى الرمل، ثم أتانا بالماء فشربنا ونحن نيام على بطوننا ورؤوسنا غارقة فى الحوض كالماشية، وارتاع البدوى فأجبرنا على التوقف عدة مرات . ولكنه لم يكن يتركنا إلا لنعاود غمر وجوهنا فى الماء .

الماء !

أيها الماء : لا لون لك، ولا طعم ، ولا شذى . لا يستطيع المرء أن يضع لك تعريفا ، وإنما يذوقك دون أن يعرف كنهك . لستَ ضروريا للحياة ، فأنت الحياة نفسها . إنك لتبعث فينا لذة لا تستطيع حواسنا تفسيرها ، ولقد عادت إلينا بعودتك كل القوى التى فقدناها ، وبفضلك تفجرت فى قلوبنا كل الينابيع الناضبة .

أنت أعظم ثروة فى الدنيا وأرقها أيضا ، أنت النقى فى بطن الأرض . قد يموت المرء أمام ينبوع مغنيزىّ المياه . وقد يموت على قيد خطوات من بحيرة مالحة . وقد يموت رغم لترين من الندى اختلطت بهما بعض الأملاح . فأنت نقى لا تقبل الامتزاج بأى شئ ، ولا تتحمل أى تغيير ، أنت قوة خارقة مليئة بالشكوك والاحتياط . . .

ولكنك تسكب فينا سعادة بسيطة غاية البساطة .

وأما أنت أيها البدوى الذى أنقذتنا فستُمحى صورتك من ذاكرتى ، ولن أذكر أبدا طلعتك . أنت رمز الإنسان ، وإنك لتبدو لى بوجه يجمع بين وجوه البشر أجمعين . إنك لم تحدق النظر فينا ولكنك عرفتنا توا ، فأنت الأخ الحبيب وأنا بدورى سأعرف وجهك فى وجوه البشر جميعا .

إنك تبدو لى تحيط بك هالة من النبل والعطف . فأنت سيد عظيم ، له القدرة على أن يهب الناس الماء . كل أعدائى وكل أصدقائى يبدون لى متجمعين فيك ويسيرون نحوى . ولم يعد لى فى الدنيا عدو واحد .

٨

البشر

١

ومررتُ مرة أخرى بإزاء حقيقة لم أفهمها . اعتقدتُ أني هالك وأني وصلت إلى أقصى درجات اليأس ، ولكني ما كدتُ أستسلم لمصيري حتى عرفت السلام . ويبدو أن الإنسان يكشف نفسه في تلك الساعات ، ويصبح صديقا لنفسه ، ولا يعود هناك شيء يستطيع التغلّب على ذلك الشعور بالكمال الذي يرضي فينا حاجةً ضرورية لم نكن نشعر بها من قبل . وأعتقد أن بونافوس الذي كان يغني بين الرمال قد عرف ذلك الصفاء النفسيّ . وكذلك كان جيوميه بين ثلوجه ، فكيف أنسى أنا أيضا أن قلبي قد عمّره الإيمان حين كنتُ مدفونا في الرمال

حتى رقبتى ، وحين كان العطش يذبحنى ، وأنا ملتحف بالنجوم .

ولكن كيف نهيء فى أنفسنا ذلك النوع من الخلاص ؟ إننا نعلم تماما أن كل شىء عجيب متناقض لدى الإنسان . فهذا شخص نضمن له العيش ليعمل ويخلق فإذا به ينام . وهذا الغازى ينتصر وإذا به يصبح رخوا ، وهذا الأريحى تُيسّر له الثروة فيضحى بخيلا . وما قيمة المذاهب السياسية التى تدّعى أنها تُسعد البشر إذا كنا لا ندرى أى نوع من البشر ستسعده ؟ ومن ستخلقه ؟ لسنا قطيعا يرعى ، وإن نبوغ شخص واحد كبسكال ليرجح ميلاد عديد من الأشخاص السعداء المجهولين .

لا نستطيع التنبؤ بما هو ضرورى . فكل منّا قد عرف أعظم المسرّات ولم يكن هناك ما ينبّئ بحدوثها ، وتركت لنا تلك المسرّات حنينا عظيما إليها حتى أننا لنأسف على ما كان يشوبها من آلام . . . ولقد ذقنا جميعا سحر الذكريات العصيبة عندما كنا نلقى زملاءنا .

فماذا ندرى ؟ لا شىء اللهم إلا إذا اعترفنا أن هناك ظروفا مجهولة هى التى تخصبنا . وأين تستقر حقيقة الإنسان ؟

ليست الحقيقة شيئا نثبته بالمنطق . فإذا كانت شجرات البرتقال تنمو نموا طيبا ، وتحمّل بالثمار فى هذه الأرض دون

غيرها من الأراضى ، فهذه الأرض هى الحقيقة بالنسبة لشجرات البرتقال . وإذا كان هذا الدين أو هذه الثقافة أو هذه القيم أو هذا النوع من النشاط — وليست أشياء أخرى — هى التى تهيّئ فى الإنسان ذلك الكمال النفسانى ، وتُحيى فيه سيّد عظيما كان هو نفسه يجهل وجوده ، فمعنى ذلك أن هذه القيم وهذه الثقافة وهـذا النوع من النشاط هو الحقيقة بالنسبة للإنسان أما عن المنطق فليجد له وسيلة للتعبير عن الحياة .

تكلمتُ طيلة هذا الكتاب عن بعض من يبدو أنهم أطاعوا ميلا مسيطرا على نفوسهم فاختاروا الصحراء أو الطيران كما يختار آخرون الدير . ولكنى أكون قد تنكبّت غرضى لو بَدوْت لكم داعياً إلى الإعجاب ببعض الرجال قبل كل شئ . إن الجدير بالإعجاب قبل أى شئ هى الأرض التى كوّنتهم .

إن الميول تلعب دورا من غير شك . فالبعض يعتكف فى حانوته ، والبعض الآخر يسير فى طريق لا محيص له عنه ، وإنّا لنجد فى تاريخ طفولتهم بذور تلك الحوافز التى تسيّرهم إلى مصيرهم . ولكن التاريخ يخدعنا لو قرأناه بعد أوانه . فتلك الحوافز موجودة لدى الجميع تقريبا . ولقد عرف كلنا بعضا من

أصحاب الحوانيت الذين بدوا أعظم من أنفسهم ذات ليلة أثناء حريق أو غرق ، وهم أنفسهم لا يخطئون ساعتئذ فى معرفة نوع عظمتهم ، ولكن ذلك الحريق سيبقى لغز حياتهم ، حتى إذا لم تعرض لهم فرص جديدة أو أرض صالحة أو دين مُلحّ ، رجعوا إلى نومهم دون أن يؤمنوا بعظمتهم . إن الميول تساعد الإنسان على تحرير نفسه ولكن لا بد من تحرير الميول نفسها .

ليالى الطيران أو ليالى الصحراء . . . تلك فرص نادرة لا تعرض لكل الناس ؛ ولكنها لو أتت يوما فسيكون الجميع سواسية. ولن أخرج عن موضوعى لو قصصتُ قصة ليلة بأسبانيا علمتنى شيئا عن ذلك الأمر ، فلقد تكلمت طويلا عن البعض وأحبّ أن أتكلم عن الجميع .

كان ذلك فى جبهة مدريد أثناء زيارتى لها كمخبر صحفى، وكنت أتعشى فى ذلك المساء على مائدة يوزباشى شاب فى قاع أحد المخابئ .

٢

كنا نتحدث إذ دقّت المسرة وبدأت محادثة طويلة ، وكان الأمر يتعلق بهجوم محلىّ يأمر به مركز القيادة ، هجوم يائس

مستحيل ، للاستيلاء على بعض المنازل التى حوّلت إلى قلاع من الأسمنت فى تلك الضاحية العثمالية . ورفع اليوزباشى كتفيه وعاد إلينا قائلا : « سيذهب أول من يبدو منّا . . . » ثم دفع إلىّ وإلى جاويش كان حاضرا بكأسين من الكونياك وقال له :

— ستخرج معى . اشرب ثم اذهب لتنام .

وذهب الجاويش لينام وكنا عشرة ساهرين حول المائدة فى هذه الحجرة المغلقة تماما بحيث لا ينفذ منها أى نور ، وكان الضياء قويا لدرجة أنى كنت أضطر لتضييق عينىّ لأرى . كنت قد ألقيتُ نظرة منذ خمس دقائق من خلال كوّة ، فرفعت الخرقة التى تحجبها وعندئذ لمحت أطلال منازل مأهولة غارقة فى ضوء القمر وعندما أعدت الخرقة إلى مكانها خُيّل إلىّ أنى أمسح شعاع القمر كما لو كنت أمسح سيلا من الزيت ، وبقيت فى عينىّ صورة قلاع خضراء زرقاء .

لن يرجع هؤلاء الجنود، ولكنهم لا ينبسون بكلمة فقد عقد الخجل ألسنتهم، وهذا الهجوم يتفق وطبيعة عملهم . فهذه مخازن الرجال يغترف منها كما تغترف الغلال ، وتقذف حفنة منها للبذر .

وكنا نحتسى الكونياك ، وعن يمينى اثنان يلعبان الشطرنج وعن يسارى قوم يتندرون . فأين أنا ؟ دخل رجل نصف ثمل

وهو يحك ذقنه الخشنة ومرّ علينا بعينيه الوديعتين ثم انحرفت نظرته إلى الكونياك ثم تحولت عنه، وما لبثت أن عادت إليه ثم ذهبت إلى اليوزباشى وكأنها تتوسل إليه . وضحك اليوزباشى بصوت خفيض وأحسّ الرجل بعض الأمل فتبسم هو الآخر وغشيت الحاضرين ضحكة خفيفة . وأبعد اليوزباشى زجاجة الكونياك بخفة وأمست نظرة الرجل نظرة يأس، وهكذا بدأت لعبة صبيانية فى جو يكتنفه دخان السجائر الكثيف ، وليل أبيض فانٍ ، وصورة الهجوم القادم، وكانت تلك اللعبة تجرى كأنها حلم .

وهكذا كنا نلعب ونحن سجناء فى قاع مركبنا الخار ، وفى الخارج كانت تتضاعف أصوات الانفجارات كأنها لطمات الأمواج.

وعما قليل سيجلو هؤلاء الرجال أنفسهم فى مياه الحرب فيتخلصون من عرقهم وسكرهم ومن أوضار هذا الانتظار. وإنى أراهم على تمام الأهبة ليتطهروا ولكنهم يستمرون فى شربهم ولعبهم ما استطاعوا، ويتابعون دور الشطرنج ما وسعتهم المتابعة. إنهم يطيلون الحياة بقدر ما يتيسر لهم . . . ولكن هناك ساعة جليلة ترقد على رفّ وقد ضبطت وستدق، وحينئذ ينهض الرجال ويتمطون ويلبسون مناطقهم ويأخذ اليوزباشى مسدّسه ويفيق

السكّير من خمره ويسير الجميع على ذلك المنحنى الهيّن الصاعد إلى فتحة مستطيلة يضيئها القمر، وسيفوهون بأشياء عادية بسيطة: «ياله من هجوم . . .» أو «الجو بارد». ثم يغوصون فى لجة البحر.

وعندما حانت الساعة شهدت يقظة الجندى وكان يرقد متمددا على سرير حديدى بين إطلال أحد الكهوف ، ورنوتُ إليه وهو نائم ، وبدا لى أنه يتذوق طعم ذلك النوم الهادئ الهنئ الذى لا يشوبه أى همّ ، فتذكرتُ أول يوم لى بليبيا عندما سقطتُ أنا وبريفو فى الصحراء ولا ماء لدينا وكان قد قضى علينا بالإعدام ، ولكنا استطعنا قبل أن نستشعر العطش الشديد أن ننام طيلة ساعتين وكانت تلك المرّة الوحيدة . وكان لدىّ شعور وأنا أنام أنى أستخدم قوة عجيبة للتحرّر من دنياى . وكان جسمى ما زال يدعنى فى سلام ، فما كدت أدفن وجهى بين ذراعىّ حتى أصبحت ليلتى كأية ليلة سعيدة ولا فارق بينهما .

وهكذا رقد ذلك الجاويش وهو متكوّر الجسم وليست له هيئة إنسان . وعندما أوقد موقظوه شمعة وثبّتوها على رقبة زجاجة ، لم أميّز أول الأمر شيئا من تلك الكتلة غير المنتظمة إلا حذاء الجندىّ الضخم المغطى بالمسامير والحديد ، وحذاء عامل من الفَعَلة أو من عمّال الأرصفة بالموانئ .

وكان ذلك الرجل مرتديا أجهزة عمله ، ولم يكن على جسده إلا أجهزة : منطقة الخراطيش ، مسدسات ، حمالات جلدية ، حزام تُعلق فيه الأسلحة ، فكأنّ عليه سرجا وطوقا وعُدة كاملة لحصان مهيأ للحرث . يرى المرء فى بعض الكهوف بمراكش طواحين تديرها خيل كفيفة. وهنا فى هذا الضوء الأحمر المرتجف ، كانوا يوقظون أحد الخيل الكفيفة ليجرّ طاحونته .

— هيا أيها الجاويش !

وتحرك ببطء وبدا وجهه وما زالت به آثار النوم ، وكان يتمتم بكلمات غير مفهومة ولكنه استدار للحائط ولم يكن يريد أن ينهض . لقد كان يتحصّن فى أعماق النوم كما يتحصّن الجنين فى أحشاء أمّه ، كان كالغريق فى أعماق مياه بعيدة الغور يفتح قبضتيه ويقفلهما على شىء يتعلق به من الطحالب . وكان لا بدّ من حل عقدة أصابعه . فجلسنا على سريره ووضع أحدنا ذراعه بخفّة وراء رقبته ورفع وهو يتبسم ذلك الرأس الثقيل . وكان ذلك يحاكى ما يحدث فى جوّ الحظيرة الدافىء ؛ إذ تتلاطف الخيل فيضع بعضها عنقه على البعض الآخر . ولم أر فى حياتى ما هو أكثر ودّا من ذلك . وحاول الجاويش محاولة أخيرة ليعود إلى أحلامه السعيدة ولينعتق من عالمنا ، عالم الديناميت

والعناء والليل المثلج . ولكنّ ذلك بعد الأوان . فقد أتاه شئ من الخارج وفُرض عليه كأنه ناقوس المدرسة يوم الأحد عندما يوقظ التلميذ المعاقب ، وكان قد نسى القمطر والسبورة والواجبات المفروضة على المعاقبين ، وكان يحلم بالألعاب فى الريف ، ولكن عبثا ، فقد دق الناقوس وأعاده بلا رحمة إلى عالم البشر ، إلى ظلم البشر . وكان الجاويش كذلك التلميذ ، فأخذ يحس شيئا فشيئا بذلك الجسد الذى أفناه التعب ، بذلك الجسد الذى لم يكن يريده والذى سيشعر عما قليل فى برد اليقظة بآلام المفاصل ، ثم بعبء العُدّة العسكرية ، ثم بذلك السير الثقيل وبالموت . لن يشعر بالموت بقدر ما سيشعر بذلك الدم اللزج الذى يغمس فيه المرء يديه لينهض ، وبذلك التنفس المضنى ، وبذلك الثلج المحيط به . لن يعرف من الموت مقدار ما سيعرفه من عناء الموت . وذكرتُ وأنا أرنو إليه ألمَ يقظتى أنا نفسى بالصحراء وألمَ تلك العودة إلى حمل عبء الظمأ والشمس والرمال ، ألم العودة إلى حمل عبء الحياة ، إلى ذلك الُحلم الذى لا خيار لنا فيه .

ولكن ها هو ذا الجاويش قائم على قدميه يحدّق فى أعيننا ويتساءل :

— هل حانت الساعة ؟

وهنا بدا الرجل ، فكان على خلاف مايتوقعه المنطق : كان الجاويش يتبسم ! فما هو ياترى ذلك الإغراء الذى دفع به إلى هذا؟

وتذكرت ليلة لى بباريس مع مرموز إذ كنا على عتبة مشرب فى نهاية حفلة ، وكنا فى أول الفجر ، وقد سئمنا كثرة الكلام وكثرة الشراب وشدة التعب هكذا بلا فائدة ، ولما بدأت السماء تشحب قبض مرموز على ذراعى بقوة حتى أنى أحسست أظافره، وقال لى : «فى هذه الساعة ، فى دكار . . .» كانت الساعة التى ينهض فيها الميكانيكيون فيدعكون عيونهم ، ويرفعون أغطية الطائرات ، كانت الساعة التى يذهب فيها الطيار ليطلع على التنبؤات الجوية ، ساعة تمتلئ فيها الأرض بالرفاق ولا أحد سواهم . لقد بدأت السماء تتلون وبدأ إعداد الوليمة ولكن لأناس غيرنا ، ومُدّ سماط مأدبة لم نكن بالمدعوين إليها . وسيذهب أناس غيرنا ليخاطروا بحياتهم . . . وأتم مرموز كلامه قائلا :

— يالها من قذارة أن نكون نحن هنا . . .

وأنت أيها الجاويش لأى مأدبة دُعيت ؟ لأى مأدبة تستحق أن تموت من أجلها ؟

لقد بحتَ لى بسرك ، وقصصتَ لى قصتك . كنت كاتب

حسابات فى مكان ما ببرشلونة ، وكنت تدوّن أرقاما دون أن تشغل نفسك كثيرا بالخلافات السياسية فى وطنك . ولكن زميلا التحق بالجيش الجمهورى ثم التحق به ثان وثالث ورأيت نفسك تخضع لتحوّل عجيب ، وكلك دهشة لذلك : فبدت لك مشاغلك شيئاً تافها ، ورأيت مسرّاتك وهمومك وراحتك المتواضعة كأنها آثار عصر سالف . ولم يكن ذلك أهمّ شيء . ولكن أتى أخيرا نبأ موت واحد منكم قتل بناحية ملقا ، ولم يكن الأمر يتعلق بصديق تودّ أن تثأر له ، ولم تكن السياسة قد أقلقت بالك أبدا . ورغم ذلك فقد هبّ ذلك الخبر عليكم وعلى مصائركم الوضيعة كما تهبّ رياح البحار . وتطلّع إليك صديق فى ذلك الصباح وسألك :

— أنذهب ؟

فقلت له :

— نعم نذهب .

وذهبتما .

وتحضر لى بعض الصور ، فتوضح لى تلك الحقيقة التى لم تعرف أنت أن تترجمها إلى كلمات ولكن بداهتها أخضعتك ، واستولت عليك .

فعندما يأتى البطّ البرى فى موسم الهجرة ، يصيب المناطق

التي يغشاها اضطراب غريب ، فترى البط المستأنس يقوم بقفزات غير ماهرة فكأن طيران البط البرى قد اجتذبه إلى ذلك . فالنداء البرىّ قد أيقظ فيها ، لستُ أدرى ، أى بقايا من آثار البرّية ، وها هو ذا البط الداجن يستحيل — لفترة قصيرة جدا — إلى بطّ برىّ . وفى تلك الرؤوس الصغيرة ، حيث تجرى صور متواضعة للغدير والحظيرة والغذاء ، تنبعث آفاق شاسعة وتنبت رغبة إلى الرياح النائية والبحار الشاسعة . وكان الحيوان يجهل أن عقله من السعة بحيث يستطيع احتواء كل هذه العجائب ، ولكن ها هو ذا يخفق بجناحيه ويحتقر الحبوب والغذاء ويودّ لو أصبح بطًّا بريا .

وعادت إلى ذاكرتى على الأخصّ صور غزلانى التى كنتُ أربيها فى چوبى . والكلّ قد ربىّ غزلانا هناك ، وكنا نحجزها هناك فى عريش فى الهواء الطلق ، فالهواء الجارى ضرورى للغزلان ولا شىء أكثر منها تعرّضا للتلف . وهى تُؤسر فى حداثتها فلا تموت ، وتقدّم لها الطعام فى يديك فتأكل ، وتلاطفها فلا تفزع وتغمر فمها الندىّ فى راحة يدك ، وتظنها قد استأنست وتظن أنك قد حميتها الألم الدفين الذى يقضى عليها فى سكون ويجعل موتها هيّنا . . . ولكن يأتى يوم تراها فيه تُثقل

بقرونها الصغيرة جدار الحظيرة من ناحية الصحراء . لقد خضعت لسحر جاذب وهى لا تدرى أنها تهرب منك . وتحضر لها اللبن فتشربه وتلاطفها ثانية فلا تفزع وتغمر فمها بودّ أكثر فى راحة يدك . . . وما تكاد تدعها حتى تراها تجرى جريا يخيل إليك أنه جرى سعيد ولكنها تعود إلى جدار الحظيرة واذا لم تتدخل أنت لمنعها من ذلك فإنها تبقى هناك ، وهى لا تحاول مقاومة الجدار، تستند إليه بقرونها ورأسها منخفض وتبقى هكذا حتى تموت . أهو موسم الحب ، أم هى حاجة إلى العدو السريع الذى يبهر الأنفاس ؟ إنها لتجهل ذلك ، فلم تكن عيونها قد تفتحت بعدُ عندما أُسرت وجىء لك بها ، وإنها لتجهل كل شىء عن الحرية بين الرمال كما تجهل رائحة الذكر . ولكنكم أيها الناس أكثر ذكاء منها ، فأنتم تدرون ما تنشده الغزلان ، إنها تنشد الآفاق الفسيحة التى تؤدى بها إلى الكمال ، إنها تريد أن تصبح غزلانا حقيقية وأن ترقص رقصتها الخاصة . إنها تريد أن تعرف الهرب السريع فى خط مستقيم ، ذلك الهرب الذى تقطعه من آن لآخر انفجارات فجائية كما لو كانت هناك لهب تخرج من الرمال. وماذا تهم الذئاب الصحراوية ، إذا كانت حقيقة الغزلان هى أن تتذوق الخوف الذى يضطرها إلى التفوق على نفسها ويجعلها

تقفز أعلا القفزات ! وماذا يهم الأسد إذا كانت حقيقة الغزلان هى أن تُصرع بضربة مخلب تحت نار الشمس ! . . وإنك لتنظر إليها وتقول : ها هو ذا الحنين قد استولى عليها . الحنين ، ما الحنين ؟ إنه الرغبة فى شىء لا ندريه . . . نجدُ موضوعَ الرغبة ولـكن لا كلمات لديك للتعبير عنها .

ونحن البشر ، ماذا يعوزنا ؟

وأنت أيها الجاويش ، ماذا وجدتَ هنا مما جَلَب لك الشعور بألا تتنكب مصيرك بعد الآن ؟ أهو ذلك الذراع الرفيق الذى رفع رأسك النائم ، أم هو تلك البسمة الوديعة التى لم تـكن بسمة الشكوى وإنما كانت بسمة المشاركة ؟ فالشكوى معناها أنكما اثنان وأنكما ما برحتما منقسمين . ولـكن هناك سموٌّ فى العلاقات الإنسانية يجد فيه الإنسان أن الاعتراف بالجميل والرحمة قد فقدا معنييهما ، هناك فى ذلك السِّماك يتنفس الإنسان بحرية كسجين فكت قيوده .

ولقد عرفنا ذلك الاتحاد عندما كنا نخترق ريو دورو وكانت ما تزال عندئذ من المناطق الثائرة . ولم أسمع أبدا المصاب يشكر منقذه . وكنا ملاحى طائرتين وكثيرا ما كنا نسبّ بعضنا أثناء نقل حقائب البريد من طائرة إلى أخرى ، وهى عملية شاقة

فكنتَ تسمع : « أيها القدر ! إذا كانت الطائرة قد تعطلت فذلك بسبب خطئك ورغبتك الجنونية فى الطيران على ارتفاع ألفى متر فى صميم التيارات الهوائية المتضادة ، ولو تبعتنى على ارتفاع أقل لكنا الآن فى ميناء أتيين ! » وترى ذلك الذى كان يهب حياته لإنقاذ زميله ، خجلا من أن يُدعى : قدرا . ولكن لماذا كنا نشكره ؟ كان له هو أيضا الحق فى حياتنا فلقد كنا أغصان شجرة واحدة . وكنت أنا فخورا بك يامن أنقذتنى !

ولِمَ كان يرثى لك من يعدّك للموت أيها الجاويش ؟ كنتم تخاطرون جميعا وكلكم يخاطر من أجل الآخر . وفى تلك اللحظة يكتشف المرء هذه الوحدة التى لم تعد بها حاجة إلى لغة لتعبر عنها . لقد فهمت رحيلك . . . فإذا كنت فقيرا فى برشلونة ، وإذا كنت وحيدا بعد انتهاء عملك ، وإذا كان جسدك نفسه قد حرم ما يحميه ، فإنك هنا الآن تحسّ أنك تكمل نفسك ، وأنك تتصل بحقيقة كونية . . . وها أنت المنبوذ تمسى الآن ضيفا يستقبلك الحبّ .

وإنى لا أبالى أكانت كلمات السياسيين الضخمة التى بذرت فى نفسك ، مخلصة أم لا ، منطقية أم لا ، إنى لا أبالى ذلك ، فإذا

كانت قد نمت فيك كما تنمو البذور، فما ذلك إلا لأنها تستجيب لحاجاتك ، فأنت الحكم الوحيد . والأرض هى التى تعرف كيف تميز بين البذور .

٣

فعندما تربطنا بإخواننا غاية مشتركة خارجة عنا ، عند ذاك نستطيع أن نتنفس ونحيا . وتدلنا التجربة على أن الحب ليس أن ينظر بعضنا إلى بعض ، وإنما أن ننظر سويا فى اتجاه واحد . وليست هناك زمالة حقة إذا لم يتحد الزملاء فى حزمة واحدة ويتجهوا إلى قمة واحدة يلتقون فيها . وإلا فكيف يمكن فى عصر الرخاء المادى ، تفسير ذلك المرح العظيم الذى كنا نستشعره ونحن نتقاسم آخر ما بقى لنا من قوت فى الصحراء ؟ وماذا تساوى كل أقوال علماء الاجتماع أمام هذه الحقيقة ؟ وأولئك الذين عرفوا المرح العظيم الذى يحسه المرء عندما ينقذ زميلا منكوبا بالصحراء يدركون أن أية مسرة أخرى تعد شيئا تافها بالنسبة إلى ذلك .

وربما كان هذا سبب بدء تصدع الدنيا من حولنا،فكل واحد يلتهب حماسة لأديان تعده بذلك الكمال ، وكلنا نعبر عن أغراض

واحدة وإن اختلفت وتناقضت كلماتنا ، فاختلافنا هو اختلاف على وسائل أثمرها تفكيرنا، وليس اختلافا على الغايات، فالغايات واحدة.

وعلى هذا فلا داعى للدهشة . فذلك الذى لم يكن يدرى وجود شخص مجهول بين جنبيه ، فإذا به يشعر أن ذلك الشخص قد استيقظ مرة واحدة فى أحد كهوف الفوضويين ببرشلونة ، بفضل التضحية والمساعدة، وبفضل صورة تخيلها للعدالة ، ذلك الإنسان لن يعرف إلا حقيقة واحدة : هى حقيقة الفوضويين . وذلك الذى قام مرة واحدة بالحراسة ليحمى فريقا من الراهبات الراكعات الفزعات بأحد أديرة أسبانيا ، ذلك الأنسان سيموت من أجل الكنيسة .

ولو أنك اعترضت على مرموز حين كان يغور فى السفح الشيلى لجبال الأنديز وهو يؤمن بالنصر ، لو أنك اتهمته بالخطأ وقلت له إن خطاب تاجر لايساوى أن يخاطر من أجله بحياته ، لو قلت ذلك لمرموز لضحك منك ؛ فالحقيقة هى أنه كان ينشد ذلك الرجل الذى يولد بين جنبيه وهو يعبر جبال الأنديز .

وأذا أردت أن تقنع رجلا لايكره الحرب ، بوحشية الحروب فلا تقل عنه إنه متوحش وإنما حاول أن تفهمه قبل أن تصدر حكمك عليه .

واعتبر بقصة ذلك الضابط الذى كان يقود مرقبا متقدما نحو خطوط الأعداء أثناء حرب الريف ، وكان ذلك المرقب بين جبلين يحتلهما الثوار ، فزاره ذات ليلة مبعوثون أتوا من الجبل الغربى ؛ وبينما كانوا يشربون الشاى كالعادة المتبعة بدأ إطلاق النار من الجبل الشرقى فدفع الضابط بأولئك المبعوثين ليرحلوا لقتاله فأجابوه : « نحن ضيوفك اليوم ولا يرضى الله ان نتركك . . . » وانضموا إلى رجال الضابط وأنقذوا المرقب ثم صعدوا سراعا إلى جبلهم .

ولكن فى اليوم السابق لمعاودة القتال أرسلوا مبعوثين للضابط .

— لقد ساعدناك فى المرة السالفة .

— نعم .

— ولقد استنفدنا من أجلك ثلثمائة خرطوشة .

— نعم .

— إذن فمن العدل أن ترجعها لنا .

ولم يستطع الضابط ، وهو السيد الأريحى ، أن يستغل عملا نبيلا قام به أولئك القوم ، فأرجع لهم خراطيشا سيستخدمونها ضده .

فالحقيقة بالنسبة للإنسان هى كل مايخلق منه إنسانا . وعندما يقارن رجل عرف تلك العظمة فى العلاقات الإنسانية ، وذلك الولاء فى العمل ، وذلك التقدير المتبادل الذى يضحى بالحياة ، عندما يقارن هذا الرجل ذلك السمو الذى كان من نصيبه ، بطيبة رجل شعبى محبوب، يعتبر عن إخائه لأولئك العرب، ويربت على أكتافهم ويتملقهم ولكنه يهينهم فى نفس الوقت ، فإنه ليشعر نحوك برحمة مشوبة بالاحتقار لو قلت إنه مخطىء . وسيكون هو على صواب .

ولكنك أنت أيضا على صواب فى أن تكره الحرب .

فلكى نفهم الإنسان وحاجاته، ولكى نعرفه فى أخص خصائصه لا يصح أن نضع حقيقة أمام أخرى فالكل على صواب، والمنطق يثبت كل شىء . وإنه لعلى صواب ذلك الذى يُرجع مصائب الدنيا إلى حُدب الظهور . ولو أعلنا الحرب على الحدب لعرفنا سريعا كيف نتحمس لها ونثأر من الحدب لما ارتكبوه من جرائم . والحدب يرتكبون الجرائم بالتأكيد .

فيجب لكى نحاول استخلاص تلك الخصائص، أن ننسى لحظة واحدة تلك الخلافات التى تأتينا بعديد من الحقائق المقدسة التى

لا يأتيها الباطل، والتي تؤدى بنا إلى التعصب . ويمكننا تقسيم البشر إلى أحزاب اليمين وأحزاب اليسار، وإلى حدب وغير حدب، وإلى فاشيين وديمقراطيين، وهذه الأقسام لا يمكن الطعن فيها. ولكنكم تعرفون أن الحقيقة هى ما يبسط الدنيا لا ما يعقدها . الحقيقة هى اللغة التى تستخلص شيئا كونيا . ولم يكتشف نيوتن قانونا كان مخفيا منذ أمد بعيد كما يكتشف البعض حل لغز، وإنما قام بعملية فيها خلق، فبعث لغة بشرية تستطيع فى نفس الوقت أن تفسر سقوط التفاحة فى بستان وارتفاع الشمس فى السماء . فليست الحقيقة هى ما يمكن إثباته، وإنما الحقيقة هى ما يبسط الكون .

وما جدوى مناقشة المذاهب الاجتماعية إذا كانت كلها تستطيع أن تثبت صحتها . ولكنها تتعارض كلها، وتلك المناقشات تجعلنا نيأس من إمكان خلاص الإنسان على حين أنه يظهر نفس الحاجات فى كل مكان .

إننا نريد جميعا التحرر والخلاص . وذلك الذى يضرب الأرض بفأس يريد أن يعرف لضربته نتيجة ومعنى . وضربة الفأس من يد السجين تهينه وتذله . وما أبعدها عن ضربة الفأس من يد المنقب عن المعادن، تلك الضربة التى تعظمه وترفعه . وليس

السجن بالمكان الذى تضرب فيه الأرض بالفؤوس ، فلا وجود للعذاب المادىّ ، وإنما السجن هو المكان الذى تكون فيه ضربات الفأس بلا معنى ، هو المكان الذى لا تربط فيه تلك الضربات بين السجين وبين الجماعة البشرية .

وكلنا نبغى خلاصاً من السجن .

وفى أوروبا اليوم مائتا مليون رجل لا يجدون لحياتهم معنى ويريدون أن يُولدوا من جديد؛ فلقد انتزعتهم الصناعة من صميم الريف ، وألقت بهم فى سجون عظيمة شبيهة بمحطات إصلاح عربات السكك الحديدية . ومن قاع تلك المدن العمالية ، يريد أولئك الناس أن يستيقظوا .

وهناك قوم آخرون ، استغرقتهم المهن المختلفة وحُرّمت عليهم مسرّات الرواد ورجال الدين والعلماء . وظُن أنه يكفى أن نكسوهم ونطعمهم ونستجيب لحاجتهم ليبلغوا تلك العظمة المنشودة . ولكننا لم نخلق منهم إلا البورجوازى ، ورجل السياسة الريفىّ ، ورجل الصناعة الذى لا تتفتح نفسه لأية حياة داخلية . وإذا كنا نحسن تعليمهم فإننا لم نعد نثقّفهم . وهناك رأى تافه عن الثقافة ، ذلك هو الرأى القائل بأنها استظهار بعض

المعلومات . ولكن تلميذا غير مجتهد من تلاميذ البكالوريا يعرف اليوم عن الطبيعة وقوانينها أكثر مما كان يعرفه ديكارت أو بسكال . ولكن هل هو قادر على تسيير عقله مثلهما ؟

والكل يشعر ، مع التفاوت بينهم ، بحاجتهم إلى أن يولدوا من جديد . ولكن هناك حلول خادعة . فيمكننا أن نبعث الحياة فى الرجال بإلباسهم الملابس العسكرية. وسينشدون حينئذ أناشيد الجندية ويقتسمون خبزهم كزملاء ، ويجدون ما كانوا ينشدونه ، ويعرفون طعم شئ كونى ، ولكنهم سيموتون من هذا الخبز الذى يُقدم لهم .

ويمكننا أن نخرج الأوثان من باطن الأرض وأن نبعث الحياة فى الأساطير القديمة التى أثبتت وجودها بدرجات مختلفة ، وأن نعيد العقائد البائدة كالجامعة الجرمانية والأمبراطورية الرومانية، ويمكننا أن نُسكر الألمان بخمر الوطنية الألمانية وبفخر أنهم مواطنو بيتهوفن ، يمكننا أن نسكر حتى الدهماء ، وذلك من غير شك أسهل من أن نخرج من الدهماء بيتهوفن آخر .

ولكن هذه المعبودات،معبودات من أكلة اللحوم . وذلك الذى يموت من أجل تقدم المعارف أو شفاء الأمراض ، ذلك

الشخص يخدم الحياة بموته. ولربما كان جميلا أن يموت المرء من أجل التوسع الجغرافى، ولكن حرب اليوم تهدم كل ما تدّعى أنها تبنيه. فليست المسألة اليوم مسألة تضحية بعض الدم لتقوية الجنس كله، فالحرب منذ أن استخدمت الطائرة والغازات السامة أصبحت جراحة دموية، فكل فريق يحتمى بحائط من الأسمنت ويقذف ليلة بعد أخرى بأسراب تضرب الفريق الآخر فى أحشائه فتهدم مراكزه الحيوية وتشل إنتاجه وتجارته. والنصر لمن يفنى أخيرا. ولكن الخصمين يصيبهما الفناء معا.

وفى عالم قد أضحى صحراء، أصابنا الظمأ إلى ملاقاة الزملاء، وجعلنا ذلك الخبزُ الذى نتقاسمه وإياهم، نتقبّل الحرب وقيمَها؛ ولكننا لسنا مضطرين إلى الحرب لنعرف حرارة العَدْو مع زملائنا نحو غرض واحد، فالحرب تخدعنا، ولن تضيف البغضاء شيئا إلى حماس السباق.

ولِمَ نتباغض ونحن نعيش لغرض واحد، يحملنا كوكب واحد؟ لِمَ نتباغض ونحن نواتى فلك واحد؟ وإذا كان حسنا أن تتعارض الحضارات لتأتينا بثمرات جديدة، فإنه من المفزع أن تلتهم تلك الحضارات بعضها البعض.

وإذا كان يكفى ، لكى نحرر أنفسنا ، أن نتعاون على فهم الغرض الذى يصلنا ، فلنبحث عنه معا ليربط بيننا جميعا . والطبيب الذى يفحص مريضا لا يستمع إلى شكايات من يفحصه ؛ لأنه يبحث من وراء ذلك المريض عن الرجل الذى يريد أن يشفيه وهذا الطبيب يتكلم لغة كونية . وهكذا يفعل عالم الطبيعة عندما يتأمل المعادلات التى تفسر الذرة كما تفسر السديم . وهكذا حتى الراعى البسيط . ذلك لأن من يسهر على غنمه تحت النجوم ، لو قدّر دوره فى الحياة ، لرأى أنه أعظم من خادم . إنه حارس ، وكل حارس مسؤول عن الدولة كلها .

أوَ تظن أن ذلك الراعى لا يتمنى أن يفهم دوره فى الحياة ؟ زرتُ فى جبهة مدريد مدرسة مقامة على تل يبعد خمسمائة متر عن الخنادق ، وراء جدار حجرى صغير ، ورأيت فيها جاويشا يلقى درسا فى علم النبات . وكان يفصل بين أجزاء نبات الخشخاش ويجذب نحوه حجيجا من الرجال طويلى اللحى ، يصعدون إليه رغم القنابل فيتخلصون من وضرهم ، وما يكادون يصطفون حول الجاويش حتى يقبلوا عليه منصتين وهم جلوس حوله وذقونهم مرتكنة إلى أيديهم ، وكانوا يرمشون ، ويضغطون على أسنانهم

ولم يفهموا شيئا كثيرا فى ذلك الدرس ، ولكن البعض قد قال لهم : « أنتم كالوحوش ، لما تغادروا جحوركم بعد ، عليكم أن تلحقوا بالإنسانية ! » ، ولقد ساروا مسرعين ليلحقوا بها .

وعندما نفهم دورنا مهما كان ضئيلا ، عندئذ فقط نستطيع أن نصبح سعداء . عندئذ فقط نستطيع أن نعيش فى سلام وأن نموت فى سلام؛ لأن ما يعطى الحياة معنى يعطى الموت أيضا معنى .

والموت حلو عندما يتفق وطبيعة الأشياء ، وإليك مَثَل فلاّح البروفنس ، فعندما يصل إلى نهاية مطافه ، يُسلم وديعته من الماعز وأشجار الزيتون إلى أبنائه حتى يسلموها هم بدورهم إلى أبناء أبنائهم . وهكذا لا يموت المرء فى العائلات الريفية إلا نصف موت ، فكل حياة تتشقق بدورها كقرن نبات جاف ، وتخرج بذورها .

وجلست مرة بجوار ثلاثة فلاحين ، أمام أمّهم وهى على فراش الموت ، وكان ذلك من غير شك منظرا مؤلما . فهاهو ذا الحبل السُّرّى ينفصم للمرة الثانية ، وكانت العقدة التى تربط جيلا بآخر تُحَلّ للمرة الثانية . ورأى هؤلاء الأبناء أنفسهم وحيدين ، وعليهم أن

يتعلموا كل شيء، رأوا أنفسهم يُحرمون من المائدة العائلية التى تجمع شملهم أيام الأعياد والحفلات، ويُحرمون من القطب الذى كانوا فيه يلتقون. ولكنى اكتشفتُ أن الحياة يمكن أن توهب للمرة الثانية بعد ذلك الانفصال. فهؤلاء الأبناء سيصبحون بدورهم رؤوسا لصفوف جديدة، ونقطا يلتقى فيها الأبناء، حتى تحين الساعة التى يسلمون فيها القيادة بدورهم إلى هذا الفريق من الصغار الذين كانوا يلعبون فى الفناء.

وتطلعتُ إلى الأم، تلك الفلاحة العجوز، ذات الوجه الهادئ الجامد والشفتين المزمومتين، تطلعتُ إلى هذا الوجه الذى استحال قناعا صخريا، وعرفت فيه وجه الأبناء. فهذا القناع قد طبع وجوههم على صورته، وهذا الجسم قد استُخدم لصوغ أجسادهم فأخرج هذه النسخ البشرية الجميلة. والآن رقدت الأم محطمة ولكنها كغلاف ثمرة أخرج فاكهته. وسيأتى دور هؤلاء البنات والبنين فيصوغون بلحمهم ودمائهم بشرا آخرين. ولم يمت أحد فى المزرعة. ماتت الأم، فلتحى الأم!

نعم إنها مؤلمة هذه الصورة العائلية ولكنها بسيطة، فهى تسير نحو حقيقة لا أدريها، خلال انسلاخاتها المتعددة، مخلفة فى كل مرة حطامها البشرى.

ولهذا بدا لى ناقوس الأموات بتلك القرية الصغيرة فى ذلك المساء مُحمّلا لا باليأس ، وإنما بأمل خفىّ حلو . فهذا الذى يعلن ، بنفس الصوت ، الميلاد والوفاة ، قد أعلن فى تلك الليلة الانتقال من جيل لآخر . ولم يكن المرء ليحس إلا سلاما عظيما وهو يستمع إلى الاحتفال بقران هذه العجوز مع الأرض .

وهكذا تنتقل الحياة ، كما ينتقل الضمير الإنسانى ، من جيل إلى جيل ، فى تقدم بطىء يحاكى نموّ الشجرة . فياله من سمو عجيب ! من حمَم بركانى ، من طينة كوكب ، من خلية حيّة نمت بمعجزة . من ذلك نشأنا ، ثم سمَونا شيئا فشيئا حتى أصبحنا نكتب الشعر ونبحث فى السماء .

لم تكن الأم قد نقلت إلى أبنائها الحياة فحسب ، وإنما علمتهم لغة وعهدت إليهم بذلك المتاع المتجمع على مرّ العصور ، وعهدت إليهم بذلك الميراث الروحى الذى تلقته هى أيضا من أمها ، ذلك النصيب من التقاليد والمعتقدات والأساطير التى تكوّن كل الفرق بين نيوتن أو شيكسپير وبين وحش الكهوف .

وإن ما نشعر به عندما يصيبنا الجوع — ذلك الجوع الذى كان يدفع جنود أسبانيا إلى تلقى درس فى علم النبات بين طلقات الرصاص ، ذلك الجوع الذى دفع مرموز إلى الأطلسى الجنوبى ،

ذلك الجوع الذى يدفع الشاعر إلى قصيدته — هو أن الخليقة لم تبلغ الكمال بعد ، وأنه لا بد لنا من أن نَعِيَ أنفسنا وأن نَعِيَ الكون . لا بد لنا فى الليل ، من أن نقيم المعابر التى تصلنا بالحقائق . وما يجهل هذا إلا أولئك الذين بنوا فلسفتهم على عدم المبالاة، وحسبوا ذلك أنانية. ولكن كل شيء ينقض فلسفتهم. أليس كذلك يا رفاق ؟ إنى أدعوكم للشهادة : فقولوا متى أحسسنا السعادة ؟

٤

وها أنذا أذكر فى آخر صفحة من هذا الكتاب، أولئك الموظفين الهرمين ، الذين كانوا آخر مشيعينا فى فجر رحلتنا الأولى عندما كنا نهيئ أنفسنا لنستحيل إلى رجال، بعد أن كان لنا الحظ فى أن نُختار لذلك، لقد كانوا شبيهين بنا ولكنهم لم يدروا أنهم جياع .

وما أكثر من يُتركون فى نومهم .

منذ بضعة سنين كنت على سفر طويل بالسكة الحديدية فأردت أن أزور ذلك القطار الذى كنت سجينه لمدة ثلاثة أيام وسط هذا الهدير الذى يحاكى هدير البحر ، فقمتُ حوالى

الساعة الأولى صباحا وعبرت القطار كله . وكانت عربات النوم خالية ، وعربات الدرجة الأولى خالية .

أما عربات الدرجة الثالثة فكانت تحوى مئتين من العمال البولونيين الذين استُغنى عنهم فى فرنسا ، وكانوا عائدين لوطنهم بولونيا . كنت أسير فى الممرات متخطيا أجساد الناس وأحيانا أتوقف لأرقبهم . وبينما أنا واقف تحت مصباح ، لمحتُ فى هذه العربة غير المُقسّمة ، الشبيهة بثكنات الجنود ، والتى تفوح منها رائحة المعسكر أو مركز البوليس ، لمحتُ أناسا مختلطين تخضخضهم حركات القطار . شعب بأكمله يغطّ فى نومه وفى أحلامه المزعجة ، شعب يعود إلى بؤسه . رؤوس ضخمة حليقة تجرى على خشب المقاعد . رجال ونساء وأطفال يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال كأن الضجة كلها والهزات جميعها قد هاجتهم وهددتهم . ولم يكن النوم قد أكرم وفادتهم .

وها هم أولاء يبدون لى وكأنهم قد فقدوا صفتهم الإنسانية ، فقذفت بهم التيارات الاقتصادية من طرف أوروبا إلى طرفها الآخر ثم انتُزعوا من البيت الصغير — بشمال فرنسا — ذى الحديقة الدقيقة ، والذى تزين نافذته ثلاثة أصص من زهر الجرانيوم كنتُ قد لاحظت وجودها على نافذة أحد عمال المناجم

البولونيين . ولم يحملوا معهم إلا أدوات المطبخ والملاحف والستائر، وقد وضعوها فى لفائف سيئة الربط فبرزت محتوياتها . ولكنهم تركوا وراءهم كل ما أعزوه وأحبوه، وكل ما نجحوا فى استئناسه أثناء سنواتهم الأربع أو الخمس التى قضوها بفرنسا ، تركوا القط والكلب وزهر الچرانيوم،فاضطروا للتضحية بها جميعا ولم يحملوا معهم إلا أدوات المطبخ .

ورأيت طفلا يرضع ثدى أم مُنهكة حتى أنها كانت تبدو نائمة ، وهكذا كانت الحياة تنتقل من جسد إلى جسد فى فوضى هذه الرحلة وشذوذها . وتطلعت إلى الوالد فرأيت جمجمة ثقيلة عارية كأنها حجر أملس، وجسما مكوّما سجينا فى ملابس العمال، جسما تشوهه البروز والفجوات . كان الرجل شبيها بكومة من الصلصال . وهكذا تبدو لفاظات البحر فى الظلام على موائد الأسواق . وقلت لنفسى : ليست المشكلة فى هذا البؤس ولا فى هذه القذارة ولا فى هذا القبح . فهذا الرجل وهذه المرأة قد التقيا ذات يوم، وتبسم الرجل للمرأة وحمل إليها بعد انتهاء العمل أزهارا ، وكان خجولا مرتبكا ، وربما كان يرتجف لأنه لاحظ احتقارها له ، ولكن المرأة — لرغبتها الغريزية فى التجمل ولثقتها بجمالها — كانت تتسلى وتعبث بأقلاق هذا الرجل . وهو

الآخر — ولم يعد اليوم إلا آلة للحفر أو الطرق — كان يشعر في صميم قلبه بقلق حلو ... السر الغامض هو كيف استحال هذان الشخصان تلك اللفائف القبيحة من الصلصال ؟ وفي أي قالب شنيع مرّ جسداهما حتى ترك فيهما هذه الآثار ؟ إذا هرم الحيوان احتفظ برشاقته ، فلماذا يفسد هذا الصلصال الإنساني الجميل ؟

وواصلت رحلتي بين هؤلاء القوم الذين كان نومهم قلقا مضطربا كأنه ما خور . وكانت تطفو ضجة من الشخير الجاف والشكايات الغامضة ، وصوت نعال أولئك الرجال وهم يتقلبون من جانب إلى آخر ، وذلك الهدير الدائم كأنه هدير الأحجار يدوّمها البحر .

وجلست أمام رجل وزوجه . وكان بينهما طفل حفر لنفسه مكانا نام فيه ولكنه كان يتقلب في نومه . وبدا لي وجهه في ضوء المصباح . يا له من وجه رائع ! لقد أنجب هذان الشخصان طفلا كأنه فاكهة مذهبة . لقد أنجب هذان الخشنان الغليظان قطعة رائعة من الجمال والرّقة . وانحنيت على هذا الجبين الناعم وعلى هاتين الشفتين المزمومتين في جمال ، وقلتُ لنفسي : هذا وجه موسيقيّ ، هذا موزارت الطفل ، هذه هدية جميلة من الحياة . وإن الأمراء الصغار الذين كنا نسمع عنهم في الأساطير لا يختلفون عنه في شيء ، فماذا يصبح هذا الطفل لو حُمي ورُعي وثُقف ؟

عندما تنبت فى الحديقة وردة جميلة يهبّ البستانيون فيعزلونها ويعنون بها ويميّزونها عن غيرها . ولكن ليس للناس بستانىّ. فموزارت الطفل سيترك فيه القالبُ آثاره كما يفعل ببقية الناس، وسيجد مسرّاته العظمى فى سماع الموسيقا العفنة بالمقاهى الفاسدة إن موزارت هذا ، مقضىّ عليه بالإعدام .

وعدتُ إلى عربتى وأنا أقول : لم يعد هؤلاء الناس يتألمون لحالهم . وليس الإحسان هو ما يقلق بالى . فليست المسألة أن نرثى لجرح لا يلتئم ، فأولئك الذين يحملون الجرح لا يحسونه . والجريح هنا هو النوع الإنسانى وليس الفرد. ليس البؤس هو الذى يعذبنى فإن الإنسان ينتهى إلى الرضاء بذلك البؤس. وطبقات عديدة من الشرقيين تعيش فى القذارة سعيدة لا يقلقها شىء. ما يعذبنى هو شىء لا تشفيه مطاعم الشعب. ليس ما يعذّبنى هو ذلك القبح البادى. ما يعذّبنى هو موزارت الصريع فى كل فرد من هؤلاء الناس .

*

وليس هناك إلا الروح، لو هبّت على الصلصال لاستطاعت أن تخلق الإنسان .

مطبعة الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية